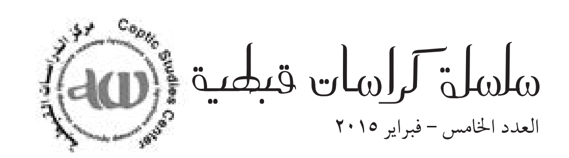


العمارة المسيحية المبكرة

إعداد
الدكتور أحمد أمين
كلية الآثار - جامعة الفيوم





العدد الخامس – فبراير ٢٠١٥

العمارة المسيحية المبكرة

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة– أثناء – النشر (فان)

أمين، أحمد (أحمد محمود أمين)

العمارة المسيحية المبكرة / إعداد أحمد أمين. — الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، مركز الدراسات القبطية، 2015.

ص. سم. (سلسلة كراسات قبطية ؛ 5)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 978-977-452-314-3

1. العمارة القبطية. 2. العمارة -- تاريخ. أ. العنوان. ب. السلسلة.

ديوي – 722.2 2015759900

ISBN: 978-977-452-314-3

رقم الإيداع: 2015/5096

التصميم والإخراج الفني: ماري يوسف

المحتوى

افتتاحية

انطلاقًا من سياسة مكتبة الإسكندرية في حفز وتشجيع الباحثين الجادين على نشر إنتاجهم العلمي المتميز وإتاحته للجمهور، وتأكيدًا على أهداف المكتبة في إرساء مفاهيم التعايش والتسامح وتعميق روابط الجماعة الوطنية المصرية من خلال البحث العلمي والدراسات الرصينة الجادة.. يأتي صدور هذه السلسلة الجديدة «كراسات قبطية»، والتي تنضم لباقة السلاسل والدراسات العلمية الهامة التي تصدرها المكتبة في مجالات متخصصة عديدة.

كما أن صدور هذه السلسلة يحقق واحدًا من الأهداف الرئيسية التي دفعت المكتبة لاستحداث «مركز الدراسات القبطية»؛ وهو التأكيد على أن التراث عمومًا بكل طبقاته هو شأن وطني عام غير مرتبط بعقيدة دون غيرها. فالتراث القبطي، شأنه شأن الفرعوني والإسلامي، هو تراث أنتجه كل المصريين؛ وبالتالي فتسجيله وتوثيقه ونشره والحفاظ عليه هو واجب وطني، ومهمة يجب أن يضطلع بها كل من يؤرقه ماضي ومستقبل هذا البلد.

لقد عمد القائمون على هذه السلسلة إلى أن تملأ إصداراتها فراغًا كبيرًا في الذاكرة والثقافة الوطنية المصرية؛ حيث ستتوالى أجزاؤها تباعًا لتلقي الضوء على مجالات الدراسات القبطية المختلفة، كالعمارة والفنون والآثار واللغة القبطية وغيرها، وذلك بالاعتماد على المتخصصين في هذه المجالات، وذلك بأسلوب سهل بسيط مختصر ومركز أيضًا، حتى يحقق الفائدة المرجوة سواء للدارسين أو للمهتمين عمومًا بهذا المجال الذي لايزال في طور التكوين.

«إن مكتبة الإسكندرية بهذه السلسلة الجديدة لهي تضع لبنة وتؤسس لمرحلة جديدة تدفع بمزيد من الاهتمام العلمي بهذا المجال الحيوي وتلك الحقبة الهامة من تاريخ وتراث مصر الثري عبر آلاف السنين والتي لم تنل قدرًا كافيًا من الدراسة والبحث، ذلك رغم أن التراث القبطي يذخر حضاريًّا وتاريخيًّا بإنتاج فكري وعلمي واجتماعي فريد لازال كثير منه قائمًا ومحفوظًا في العادات والتقاليد والاحتفالات

الدينية والموسيقى والشهور القبطية الزراعية وغيرها من المظاهر التي يشترك فيها ويمارسها المصريون جميعًا، بصرف النظر عن انتماءاتهم العقائدية أو الثقافية.»

والمكتبة تأمل في أن تكون هذه السلسلة وغيرها من الإصدارات القادمة والأنشطة التي يتبناها مركز الدراسات القبطية، حافزًا ودافعًا للمراكز البحثية المتخصصة والهيئات والجهات المهتمة بتراث مصر العريق، على زيادة الاهتمام والمشاركة مع المكتبة في مشروعات توثيق وتسجيل ونشر هذا التراث؛ وذلك تأكيدًا على دور المكتبة ورسالتها في حفظ ذاكرة مصر الوطنية عبر العصور.

الدكتور إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

مقدمة

يلقي هذا الكتيب الضوء على العمارة المسيحية المبكرة كمدخل لدراسة العمارة القبطية؛ حيث يمكن فهم خصوصية العمارة القبطية بعد استيعاب القواسم المشتركة وأوجه التمايز بين العمارة المسيحية المبكرة في كافة أرجاء البلاد التي انتشرت بها المسيحية، والتي كانت خاضعة في هذه الفترة للإمبراطورية الرومانية.

وتناول الكتيب السياق التاريخي للمسيحية المبكرة، ومفهوم مكان العبادة في هذه الفترة منذ نشأتها، وتطور مكان العبادة بدايةً من العلية مرورًا بالكنيسة المنزلية وحتى الكنائس العامة. وناقش الكتيب كذلك عمارة الكنائس في عصر الإمبراطور قنسطنطين، والذي شكلت فترة حكمه نقطة تحول محورية في تاريخ المسيحية بصفة عامة، والعمارة المسيحية المبكرة موضوع الكتيب بصفة خاصة.

وتطرق الكتيب لطرز وأنماط تخطيط الكنائس في العمارة المسيحية المبكرة، مع إلقاء نظرة سريعة على أصول وتطور هذه التخطيطات، وأشهر النماذج لها.

وعرض الكتيب لموضوع البازيليكا المزدوجة كشكل معماري ميز الفترة المبكرة، مسترشدًا بالدراسات الأكاديمية وأعمال الحفائر الحديثة، لاستكمال الفجوة في مكتبتنا العربية بصفة عامة، ومناهج دراسة العمارة المسيحية في تخصصات الآثار وتاريخ الفن على وجه الخصوص.

وأشار الكتيب في نهايته باختصار إلى العلاقة بين تخطيط الكنائس والوظيفة، وإلى آلية بناء الكنائس وتمويلها.

وقد أغفلت هذه الدراسة ذكر بعض المباحث لضيق المجال، وأذكر هنا من هذه المباحث: البنية الإنشائية والعناصر المعمارية للكنائس؛ حيث المواد الخام وتقنيات البناء، والأبواب والنوافذ، وفتحات الإضاءة والشرفات، والأسقف، والبوائك، والروافع شاملة الدعامات والأعمدة، وأجزاء الأعمدة وتيجانها ونماذجها، وأرباب الحرف والصناعات بالعمارة المسيحية ودرجاتهم ومسمياتهم ومهامهم وأجورهم. وآمل أن تُدرك هذه المباحث في عمل لاحق بمشيئة الله.

وأود هنا أن أشكر الدكتور خالد عزب، والدكتور لؤي محمود سعيد، والدكتور ماهر عيسى على دعمهم المستمر حتى تمكنت من الانتهاء من كتابة هذا الكتيب، وأشكر كذلك جميع العاملين بمركز الدراسات القبطية بمكتبة الإسكندرية، وأخص بالذكر الدكتورة دعاء محمد بهي الدين.

وقد اجتهدت في هذا العمل قدر المستطاع، ويسعدني مشاركتكم بالتعليقات والمراجعات لتصويب وتجويد هذا العمل ليكون بصورة أفضل.

الدكتور أحمد أمين
جامعة الفيوم – كلية الآثار

الإطار التاريخي والإطار الفني للحقبة المسيحية المبكرة

مفهوم المسيحية المبكرة تاريخيًّا

تمثل المسيحية المبكرة الفترة منذ ميلاد المسيح عليه السلام وحتى عام ٣٣٠ م؛ مرت فيها المسيحية بخمس مراحل مهمة: العصر الرسولي، وعصر الانتشار، وفترات الاضطهاد، والتصالح مع الدولة الرومانية، ثم أصبحت الدين الرسمي للدولة، وأصبح الإمبراطور بمثابة الرئيس الديني الأعلى للكنيسة.

العصر الرسولي[١]

يمثل القرن الأول الميلادي، وهو الفترة التي عاش فيها حواريو عيسى عليه السلام وتلاميذه، والذين عرفوا باسم الرسل، وأخذوا يدعون للمسيحية يبشرون بها في مختلف أرجاء العالم.

عصر الانتشار[٢]

يمثل القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الميلادي فترة الانتشار وزيادة عدد أتباع المسيحية في العالم الروماني؛ فكان المسيحيون يمثلون نحو ٦٠٪ من سكان آسيا الصغرى تقريبًا سنة ٢٥٠م، وكان عددهم في روما يقدر بنحو من ٣٠ إلى ٥٠ ألف نسمة، وفي شمال إفريقيا كان هناك العديد من المدن الصغيرة تؤمن بالمسيحية. وكان هناك نقلة نوعية كذلك في انتشار المسيحية بين الفئات الأعلى في المجتمع الروماني، فيذكر ترتاليون أن المسيحية (نحو منتصف القرن الثالث الميلادي) قد انتشرت بين أعضاء مجالس المدن والبلاط الإمبراطوري ومجلس السناتو والمنتدى

١- عن فترة العصر الرسولي، انظر: نيافة الأنبا يوأنس، **الكنيسة المسيحية في عصر الرسل**، ط. ٤ (القاهرة، ١٩٩٩).
Philip Schaff, *History of the Christian Church*, vol. 1, *Apostolic Christianity AD 1-100* (Michigan, 1955); James D. G. Dunn, *Unity and Diversity in the New Testament: An Inquiry into the Character of Earliest Christianity* (n.p.: SCM Press, 2006).

٢- Johann Joseph Ignaz von Döllinger, *A History of the Church*, translated by Edward Cox, vol. 1, (London, 1840): sec. 5, 31-39; Lucius Waterman, *The Post-Apostolic Age* (New York, 1898); Philip Schaff, *History of the Christian Church*, vol. 2, *Ante-Nicene Christianity AD 100-325* (Michigan, 1922); R. Krautheimer, *Early Christian and Byzantine Architecture* (England, 1986): 24-26.

الروماني. وصارت التجمعات المسيحية أكثرة قوة وتنظيمًا، وتجاوز نشاطها العبادة لتشمل رعاية المسيحيين، وإدارة الأملاك، والذهاب إلى الجبانات، والأعمال الخيرية، ودروس تعليم للمسيحيين الجدد. وظهر هيكل واضح لرجال الدين بالكنيسة من الأساقفة والقساوسة والشمامسة؛ فقد عهد لكل فئة بمهام دينية ووظائف إدارية محددة. وكان يرأس جماعة المسيحيين في كل مدينة أسقف واحد . واكتسب الأساقفة في المدن الكبيرة؛ مثل روما وقرطاجة والإسكندرية وأفسوس قيادة وسلطة حقيقية.

فترات الاضطهاد[٣]

نعِم المسيحيون بصفة عامة بالسلام في الإمبراطورية الرومانية ما لم يمثلوا خطرًا على الإمبراطورية؛ ولذا ظلت الاضطهادات خلال فترة تزيد عن القرنين ونصف القرن بعد ميلاد المسيح عليه السلام تمثل حالات استثنائية ومتقطعة، وذات صفة محلية ارتبطت ببعض الأماكن دون غيرها؛ مثل أحداث روما سنة ٦٤ م (الإمبراطور نيرون)، وسميرنا (أزمير حاليًّا) سنة ١١٧ م (الإمبراطور تراجان)، وليون سنة ١٧٧ م (الإمبراطور ماركوس أوريليوس). ولكن مع بدايات النصف الثاني من القرن الثالث تغيّر الأمر، فقد زادت أعداد المسيحيين بصورة ملحوظة – كما سبق القول في عصر الانتشار – وانضم إلى المسيحية أعداد من رجال البلاط والوظائف العليا بالدولة. فقد عاش المسيحيون في الدولة الرومانية بسلام – إلى حد كبير – طالما كانوا غير مُلزمين بتقديم فروض العبادة للدولة والإمبراطور. واستطاع المسيحيون في الفترات المبكرة – لصغر أعدادهم وعدم ظهورهم في الطبقات العليا – التغلب على هذه المشكلة والتهرب من تقديم فروض العبادة للدولة والإمبراطور. لكن مع انتشار المسيحية بين طبقات العاملين بالدولة والمراكز العليا زاد الأمر وضوحًا، ولم يرتضِ المسيحيون عبادة كائن

٣- G. E. M. de Ste. Croix "Why Were The Early Christians Persecuted?" *A Journal of Historical Studies* (November 1963): 6–38; W. H. C. Frend, *Martyrdom and Persecution in the Early Church* (n.p., 1965); Timothy D. Barnes, "Legislation Against the Christians", *Journal of Roman Studies* 58, no. 1, 2 (1968): 32–50; Paul Keresztes, "From the Great Persecution To the Peace of Galerius", *Vigiliae Christianae* 37, no. 4 (1983): 379–399; P. S. Davies, "The Origin and Purpose of the Persecution of AD 303", *Journal of Theological Studies* 40, no. 1 (1989): 66–94; Graeme Clarke, "Third-Century Christianity", *in The Cambridge Ancient History*, edited by Alan Bowman, Averil Cameron and Peter Garnsey, vol. XII, *The Crisis of Empire* (New York: Cambridge University Press, 2005): 589–671.

حي حتى لو كان الإمبراطور نفسه. وعدم امتثال المسيحيين لفروض العبادة للأباطرة كان أحد أهم أسباب الاضطهاد. وبمرور الوقت ومع زيادة قوة أنصار المسيحية وتزايد أعدادهم كان لابد من حدوث مواجهة بين المسيحيين والدولة الوثنية؛ فلم يسمح الأباطرة بضياع نفوذهم وذهاب هيبتهم، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة؛ فذهب دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥ م) إلى انحداره من جوبيتر ملك الآلهة، واعتبر عدم مشاركة المسيحيين في فروض عبادة الإمبراطور والدولة إهانة له وخيانة عظمى.

فأدت المواجهات إلى فترتين من الاضطهاد الصعب، أعوام ٢٥٠ م (الإمبراطور ديكيوس)، ٢٥٧ – ٢٦٠ م؛ونتج عن هذه الاضطهادات القبض على القيادات المسيحية في روما وقرطاجة والإسكندرية وإعدامها، وإجبار المسيحيين على تأدية طقوس العبادة الوثنية، وحظر أي تجمعات مسيحية، ومصادرة أملاكهم. وقد أنهى الإمبراطور جالينوس الاضطهاد سنة ٢٦٠ م، ورد إلى الكنائس ممتلكاتها ومنشآتها، وجباناتها، وأقر بحق المسيحيين في التجمع.

وارتبط اسم دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥ م) بما عرف بعهد الاضطهاد الأعظم؛ ففي عام ٣٠٣ م أصدرت الإمبراطورية مراسيم تحتم على جميع الرومانيين تأدية فروض الديانة الوثنية في المناسبات المقررة، وتوقيع أقصى العقوبات على كل مسيحي يمتنع عن ذلك، وبدأ في ٢٣ فبراير ٣٠٣ م العهد الذي أطلق عليه المسيحيون اسم عهد الاضطهاد الأعظم؛ حيث عانى المسيحيون شتى أنواع العذاب، وهدمت كنائسهم، وحرقت كتبهم المقدسة في جميع أرجاء الإمبراطورية. واعتزل دقلديانوس الحكم سنة ٣٠٥ م – واستمر الاضطهاد بعد تنازل دقلديانوس عن العرش لفترة من الوقت – وتوقف الاضطهاد بعد أن رأى الأباطرة أن ذلك يهدد الحفاظ على سلامة الإمبراطورية.

التصالح مع الدولة الرومانية

تبدأ المسيحية مرحلة جديدة من تاريخها بتولي الإمبراطور قنسطنطين شئون الإمبراطورية الغربية، استطاع سنة ٣١٢ م توحيد الغرب كله تحت إمرته، بعد قضائه على منافسه ماكسنتيوس. وفي عام ٣١٣ م صدر مرسوم ميلان[٤] والذي أجاز رسميًّا اعتناق الدين المسيحي.

٤– T. G. Elliott, *The Christianity of Constantine the Great* (Scranton, PA: University of Scranton Press, 1996): 119 f; Erica Carotenuto, "Six Constantinian Documents (Eus. "H.E." 10, 5-7)", *Vigiliae Christianae* 56, no. 1 (Feb 2002): 56-74.

المسيحية الدين الرسمي للدولة

بعد تتويج الإمبراطور قنسطنطين سنة ٣٢٣ م إمبراطورًا على كامل الإمبراطورية الرومانية منفردًا واعتناقه الدين المسيحي - بغض النظر عن دوافعه ومدى حقيقة اعتناقه المسيحية - أصبح أول إمبراطور مسيحي. وفي العام التالي في نوفمبر ٣٢٤ م بدأ في إنشاء مدينته الجديدة في موقع مدينة بيزنطة (المدينة اليونانية التجارية القديمة، عند اتصال البسفور ببحر مرمرة). وفي ١١ مايو ٣٣٠ م احتفل الإمبراطور قنسطنطين بتدشين العاصمة الجديدة للإمبراطورية، وأطلق عليها «روما الجديدة» أو «روما الثانية»؛ لتكون أول عاصمة لأول إمبراطور مسيحي. وأصبح الإمبراطور قنسطنطين[٥] بمثابة الرئيس الديني الأعلى للكنيسة، ولم ينازعه أحد في ذلك لمكانته الدينية العالية هو - وأمه هيلينا - في نفوس المسيحيين في العالم أجمع؛ فهو الذي دعا بنفسه إلى مجْمع نيقية ٣٢٥ م، ورأس قنسطنطين هذا المجْمع الذي عرف باسم المجْمع المسكوني الأول، وحضره ٣١٨ أسقفًا، وهكذا جعل قنسطنطين الكنيسة المسيحية كنيسة الدولة وعلى رأسها الإمبراطور باعتباره الرئيس الديني الأعلى لها. وأرسل قنسطنطين أمه هيلينا إلى بيت المقدس، وهناك عثرت على موضع الجلجثة بعينه، واستخرجت الصليب الحقيقي من بطن الأرض، ومعه صليبا اللصين، والحربة، والإسفنجة، وتاج الشوك، وكل آثار الصلبوت الأخرى؛ واهتز العالم المسيحي لذلك الكشف، وخلد ذكر أم الإمبراطور وأضفى عليها القداسة وأصبحت القديسة «إلينا». وقام قنسطنطين بتشييد كنيسة القيامة في أورشليم، وتعرف كذلك باسم «القبر المقدس»؛ وأصبحت كعبة الحجاج المسيحيين من مختلف بقاع الأرض منذ ذلك التاريخ؛ كل هذا جعل المؤرخين يطلقون على الإمبراطور قنسطنطين ألقابًا تؤكد مكانته الدينية، ورئاسته للكنيسة المسيحية، مثل «الحواري الثالث عشر» و«قرين الرسل».

٥- Eusebius, "The Life of Constantine, by Eusebius, Together with the Oration of Constantine to the Assembly of the Saints, and the Oration of Eusebius in Praise of Constantine", in *Select Library of The Nicene and Post-Nicene Fathers of The Christian Church*, revised translation by Ernest Cushing Richardson, translated into English with Prolegomena and Explanatory Notes under the Editorial Supervision of Philip Schaff and Henry Wace, Second Series, vol. 1, (n.p., [19--]): 672 f; Joseph Fletcher, *Life of Constantine the Great* (n.p., 1852): chaps. VIII-XII.

ومن المعروف أن تفرد المسيحية بكونها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية تم في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ – ٣٩٥ م)، وتحديدًا في سنة ٣٩٢ م عندما أصدر قرارًا بمنع[٦] العبادات الوثنية؛ إلا أن عصر قنسطنطين يعكس مفهوم أن المسيحية دين الإمبراطور ومن ثم فهو دين الدولة؛ ويتضح هذا بجلاء في رئاسته لمجْمع نيقية سنة ٣٢٤م، وأعماله بالقدس وكذا والدته هيلينا. والفارق الوحيد قد يكون في ترك قنسطنطين الوثنية كديانة بمعابدها وطقوسها جنبًا إلى جنب مع المسيحية، وهو الأمر الذي اختلف مع حكم أسرة ثيودوسيوس، وأول أباطرتها ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ – ٣٩٥ م)؛ والذي أخذ يضيق الأمر بمنع العبادة الوثنية، وابنه ثيودوسيوس الثاني والذي أصدر قرارًا سنة ٤٣٥ م بتدمير المعابد الوثنية، وإن لم يطبق في كل المناطق. ولم يعكر صفو هذه الفترة سوى فترة حكم الإمبراطور جوليان (٣٦١ – ٣٦٣ م)، والذي عُرف في التاريخ باسم جوليان المرتد، ومحاولته الفاشلة البائسة للقضاء على المسيحية؛ والتي أظهرت بوضوح مدى ضعف وهزالة أتباع الوثنية في مقابل أنصار المسيحية في هذه الفترة. أي بكلمات أخرى لم يكن قرار ثويدوسيوس باعتبار المسيحية الدين الرسمي للدولة سوى إقرار ما هو قائم بالفعل على أرض الواقع منذ عهد قنسطنطين، بخاصة بعد إنشاء القنسطنطينية.

دون شك، أثر إقرار ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ – ٣٩٥ م) المسيحية باعتبارها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية على العمارة المسيحية؛ فقام المسيحيون بعد ذلك التاريخ بتحويل المعابد والمباني الوثنية القديمة إلى كنائس، فطمسوا من جدرانها كل ما يتصل بالعبادة الوثنية، أو حجبوها بتغطيتها بطبقة من الملاط أو الجصّ، واستبدلوا بالرسوم والرموز الوثنية الشارات والرموز المسيحية، فتحول الطابع العام لبلاد الإمبراطورية الرومانية مع نهاية القرن الرابع الميلادي للصبغة المسيحية، وبصفة خاصة الجزء الشرقي منها.

فنجد في مصر، مع تحويل المعابد المصرية القديمة والبطلمية إلى كنائس، أنهم بادروا بنقش الصلبان على الأعمدة والأعتاب، وتغطية الرسوم ذات الدلالة الوثنية بطبقة من الملاط، ورسموا مكانها صور الرسل والقديسين والشهداء، وكتبوا أحيانًا بعض النصوص الدينية. وآثار هذا التحول نستطيع أن

٦– Philip Schaff, *History of the Christian Church*, vol. 3, *Nicene and Post-Nicene Christanity from Constantine the Great to Gregory the Great* AD 311-600 (New York, 1891): 63-67.

نراها في معابد منطقة الصعيد والنوبة، مثل معابد أسوان بفيله وكوم إمبو، ومعابد الأقصر في الكرنك، ومعبد مدينة هابو ودندرة وغيره[٧].

استمر الصراع في الفترة من القرن الرابع وحتى القرن السابع، متمثلاً في جدل عقدي مسيحي – مسيحي لم يهدأ إلا بصعود الدولة الإسلامية وسيطرتها على الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) في الشام ومصر. وجعل هذا كثيرًا من المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الفترة المبكرة في تاريخ المسيحية تمتد حتى القرن السابع الميلادي؛ حين استقرت أمور العالم المسيحي لفترة تصل لنحو تسعة قرون تالية، وحتى فتح القسطنطينية على يد القائد العثماني محمد الثاني (فترة حكمه ١٤٥١ – ١٤٨١ م) والذي لُقب بالفاتح سنة **١٤٥٣**م[٨].

٧– رءوف حبيب، **كنائس القاهرة القبطية القديمة** (القاهرة: ١٩٦٦): ٣؛ مصطفى عبد الله شيحة، **دراسات في العمارة والفنون القبطية**، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية مشروع المائة ١١ (القاهرة: وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٨): ١٧.

٨– دخل محمد الفاتح (محمد الثاني وحكم في الفترة ١٤٥١–١٤٨١م) وجيشه القسطنطينية يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٩ مايو ١٤٥٣م. للاستزادة عن محمد الفاتح وفتح القسطنطينية، انظر:

Edward Gibbon, "The History of the Decline and Fall of the Roman Empire", Chap 68 in *Fall in the East* (n.p., n.d.), Online e-book, http://www.ccel.org/ccel/gibbon/decline/files/volume2/chap68.html.

مفهوم العمارة المسيحية المبكرة

رغم التأثر الأكيد للفنون والعمارة بالنظام السياسي والنظام الديني، فإنهما لا يسيران في خطين متوازيين. فالفصل الحاد بين المراحل الفنية لا يماثل نظيره في الحقب التاريخية استنادًا على تغير نظم الحكم أو هويتها الدينية أو المذهبية أو السياسية. فتاريخ الفنون سلسلة من الحلقات لا يمكن فصلها عن بعضها، وتقوم كل حلقة منها على أكتاف الحلقة السابقة لها، كما تمثل أساسًا للحلقة اللاحقة عليها. وهذا المبدأ يتضح في العقائد السماوية، وتاريخ الحضارات، وهو أوضح ما يكون في الفنون والعمارة والآثار.

صارعت المسيحية منذ نشأتها من أجل البقاء، سواء في المجتمع اليهودي تحت الحكم الروماني، وكان مهدها في فلسطين، أو معاناتها الشديدة مع الوثنية المنتشرة في ربوع أراضي الإمبراطورية الرومانية؛ حيث اتجهت المسيحية. وبغضّ النظر عن الدوافع المختلفة لكلٍّ من اليهود والرومان في محاربة الدين المسيحي أو اضطهاد أتباعه لبعض الفترات[٩]؛ فقد انعكست هذه الظروف شديدة الصعوبة والتعقيد لنشأة المسيحية وانتشارها طوال القرون الثلاثة الأولى للمسيحية على عدم وصول آثار لها، بخاصة المعمارية بصورة تعكس الهوية المسيحية المختلفة للعمارة.

كان الفرق بين المسيحيين والوثنيين في تلك الفترة (لاسيما في القرنين الأول والثاني الميلاديين) روحيًّا في المقام الأول؛ فلم تكن ثمة طقوس خاصة أو مكونات واضحة يُظهرها المسيحيون. فلا يمكن التمييز بين آثار تلك الفترة المبكرة وفصل إنتاجها الفني إلى مسيحي وغير مسيحي، أو معرفة هوية صاحبها العقدية كونه مسيحيًّا أو وثنيًّا.

ويمثل الفن المسيحي المبكر فرعًا من الفن الروماني. فقد استمر الفن الروماني عبر الفن المسيحي المبكر لكن بشكل مختلف، فقد اكتسب مضمونًا جديدًا وأيدلوجية مختلفة مصدرها الديانة المسيحية الجديدة؛ والتي شكلت محددًا جديدًا يمثل الفارق بين الإنتاج الفني المسيحي المبكر والفن الروماني.

٩- Samuel Cheetham, *History of the Christian Church during the First Six Centuries* (London, 1905) 24-48.

والنظريات التاريخية للحد الزمني لنهاية الفترة المسيحية المبكرة عديدة؛ فيذهب الكثير من مؤرخي الفنون إلى أن الفترة المسيحية المبكرة تمتد حتى القرن السابع الميلادي – معظم الآثار المعمارية حقيقة تعود للفترة من القرن الرابع وحتى القرن السابع الميلادي – واستخدام مصطلح «مسيحي مبكر» أو «روماني متأخر» للإشارة إلى العمارة قبل القرن السابع الميلادي.

وهذا التقسيم رغم قبوله نظريًّا، فإنه يحوي إشكالية كبرى تتمثل في تجريده للعمارة البيزنطية من عصرها الذهبي فترة حكم الإمبراطور جستنيان، واعتباره كنيسة القديسة صوفيا Άγια Σοφία دُرة العمارة البيزنطية الفريدة، ضمن العمارة المسيحية المبكرة[١٠].

وإذا ما اتفقنا أن العمارة المسيحية المبكرة استمرار للعمارة الرومانية (وتقنيات بنائها وعناصرها المعمارية) بروح وهوية جديدتين تعكس الاستخدام المسيحي؛ ويمكننا إدراج عمائر عصر قنسطنطين وما بعده حتى بداية عصر الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) ضمن هذا التوصيف، فإن من الصعب تعريف عمارة كنيسة آيا صوفيا ضمن هذا الإطار.

وهكذا يمكن اعتماد بداية حكم الإمبراطور جستنيان كنقطة تحول في العمارة المسيحية المبكرة إلى العمارة البيزنطية المبكرة.

ونحن هنا نقصد بالعمارة المسيحية المبكرة أي التي أنتجها المسيحيون، أو التي أُنتجت تحت رعاية مسيحية، أو اُستخدمت من قبل المسيحيين كأماكن للعبادة منذ نشأة المسيحية وحتى بداية عصر الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ م.

وجاء تحديد هذه الفترة الزمنية استنادًا لعدة عوامل على النحو التالي:

- أن فترة القرون الثلاثة الأولى – إلى حد كبير – لم تصلنا آثار معمارية مسيحية نتيجة لعوامل مختلفة؛ أبرزها فترات الصراع مع الدولة الرومانية (الاضطهاد) والتي نتج عنها هدم الكنائس والمباني المسيحية.

١٠– Cyril Mango, *Byzantine Architecture* (London, 1976): 3.

وتوجد ترجمة عربية:

سيريل مانجو، **العمارة البيزنطية**، ترجمة رندة فؤاد قاقيش (دمشق، ١٩٩٩): ٧. وسأشير فقط إلى الترجمة العربية لاحقًا.

- أن العمارة المسيحية في الفترة من القرن الرابع وحتى بداية عصر جستنيان تمثل استمرارًا للتقاليد المعمارية الرومانية.

- ظهور طراز معماري جديد مغاير للتقاليد الرومانية ومتطور لعمارة الكنائس في عصر الإمبراطور جستنيان، متمثلاً بصفة جوهرية في عمارة القديسة صوفيا (آيا صوفيا أو الحكمة المقدسة) بالقنسطنطينية. مع الأخذ في الاعتبار أن هذا التاريخ لا يمثل حدًّا فاصلاً لتوقف استمرارية مظاهر تأثير العمارة الرومانية على عمارة الكنائس المسيحية، والذي ظل واضحًا حتى فترة متأخرة، مع مراعاة خصوصية العمارة المسيحية في مصر والتي تأثرت بطبيعة الحال بالعمارة المصرية القديمة.

- ثمة عاملان رئيسيان كان لهما التأثير الأكبر على تشكيل العمارة المسيحية المبكرة: المجْمع اليهودي، والعمارة المحلية الموروثة في أراضي الإمبراطورية الرومانية، متمثلة في العمارة المصرية القديمة، واليونانية، والهلينستية، والرومانية.

تأثير اليهودية[11] على المسيحية في الفترة المبكرة وصدى ذلك على العمارة

إن دراسة تاريخ المسيحية في عصر الرسل (الفترة التي تلي عيسى عليه السلام) تثبت مدى التصاق المسيحية في تلك الفترة بالعقيدة اليهودية، ومن ثم تأثرت إلى حد كبير بممارسات الطقوس اليهودية.

انبثقت المسيحية من اليهودية، بعد أن أكمل السيد المسيح في شخصه الناموس القديم. فقد ولد في ظل هذا الناموس. وجاء على لسان عيسى عليه السلام: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل». وقد بعث المسيح عليه السلام إلى اليهود خاصة.

---

١١ – للاستزادة عن ارتباط المسيحية في نشأتها باليهودية وطبيعة هذا الارتباط ونتائجه، انظر:
يوأنس، **الكنيسة المسيحية**: ٢٤–٤٣، ٨٨–١٠٣، وانظر أيضًا:

James D. G. Dunn, *Jews and Christians: The Parting of the Ways, AD 70 to 135* (n.p.: Wm. B. Eerdmans Publishing, 1999); L. Michael White, *From Jesus to Christianity* (n.p.: HarperCollins, 2004); Phillip F. Esler, *The Early Christian World* (Routledge, 2004); Brown Barclay, *The Origins of Christianity: A Historical Introduction to the New Testament* (Oxford University Press, 1993).

وقد حاول اليهود المتنصرون أن يبنوا على هذا الأساس؛ حيث احتفاظهم بالناموس القديم مع إيمانهم بالمسيح عليه السلام الذي تنبأت به كتب العهد القديم.

وقد انعكس هذا على مدى فرض قيود اليهودية وطقوسها على المسيحية، وقد ظهرت هذه الإشكالية بوضوح مع دخول وثنيين للمسيحية مما طرح سؤالاً: هل هؤلاء أيضًا مطالبون بالتقيد بطقوس وتقاليد الناموس اليهودية؟ وقد أدى ذلك إلى عقد أول مجْمع كنسي في تاريخ المسيحية، والذي عرف بمجْمع أورشليم سنة ٥٠ م؛ وكان الموضوع الرئيسي الذي انعقد المجْمع لأجله هو موضوع «تهوّد الأمم» أي إلزام الأمم المؤمنة حديثًا بالمسيحية بحفظ ناموس موسى عليه السلام. وانتهى المجْمع إلى القرار بأن: «لا يوضع على المؤمنين ثقل أكثر غير هذه الأشياء الواجبة؛ وهي: الامتناع عما ذبح للأصنام، وعن الدم والمخنوق والزنا». وهذا القرار في حقيقته حاول أن يحل الإشكالية بحكمة، فهو لم يفرض التهوّد صراحة على المؤمنين الجدد من غير اليهود، لكنه حرم الأمور التي كان يطالب بها غير اليهودي (الأممي) حتى يسمح له بحضور المجْمع اليهودي.

كان يتزعم اتجاه عدم إلزام المسيحيين الجدد بالناموس وطقوسه القديس بولس «الرسول». وينسب إليه الفضل في فصل ارتباط المسيحية عن اليهودية كديانة وكقومية في ذات الوقت. وهو أيضًا الذي زرع بذور المسيحية كديانة عالمية، فنشر الإنجيل لليهود والوثنيين الذين كانوا يعيشون في المدن الهلينية باليونان، وبامتداد ساحل آسيا الصغرى، وفي روما.

ولم تحل هذه الإشكالية بقرار مجمع أورشليم سالف الذكر، ولم تنته إشكالية التهوّد إلا بعد خراب أورشليم وهيكلها على يد القائد الروماني تيطس (ابن الإمبراطور فسبسيان ٦٩ – ٧٩ م، وصار تيطس إمبراطورًا ٧٩–٨١ م) سنة ٧٠ م (شكل ١، ٢).

وحفظت لنا المصادر وصفًا لشكل المعبد وطريقة العبادة فيه كما كانت في القرن الأول للميلاد (ما يعرف بالهيكل الثاني أو هيكل هيرودس) في مؤلفات المؤرخ اليهودي الروماني المعاصر لتدمير الهيكل سنة ٧٠ م يوسيفوس فلافيوس، وخاصة في مؤلفه «حروب اليهود» التي تسرد سلسلة الأحداث التي أدت إلى التمرد اليهودي على الرومان وأحداث التمرد. وسأقتبس هنا ترجمةً لبعض الأجزاء المتعلقة بوصف المجْمع اليهودي، وعمارته، ونظام العمل به عن نيافة الأنبا يوأنس[١٢] عن "Schaff".

١٢– يوأنس، **الكنيسة المسيحية**: ٢٧–٣١.
Schaff, *History of the Christian Church*, vol. 1: 456-460.

المجْمع اليهودي

كان هو المركز المحلي لحياة اليهود الدينية والاجتماعية. كان مدرسًا ومعبدًا وحارسًا لكل تراثهم. وقد ازدادت أهميته بعد خراب هيكل أورشليم سنه ٧٠م. بدأت المجامع اليهودية تاريخيًّا من وقت السبي، وإن كان اليهود يحاولون إرجاعها إلى مدارس الأنبياء، بل إلى زمان البطاركة الأولين. وفي العصر الرسولي كان المجْمع قد اكتمل نظامه، واستخدمه اليهود كقاعدة للتعليم الشعبي. وكلمة مجْمع "Synagogue" ككلمة كنيسة، تعني الشعب والبناء؛ حيث يجتمع الشعب للعبادة العامة. كان لكل مدينة مهما صغرت مجْمع، أو على الأقل مكان للصلاة في منزل خاص أو في الهواء الطلق. وكان المكان يختار عادة قرب نهر أو شاطئ بحر لتسهيل الغسلات الطقسية. وقد صوّر سفر الأعمال انتشار المجامع اليهودية بقوله: «لأن موسى منذ أجيال قديمة له في كل مدينة من يكرز به، إذ يُقرأ في المجامع كل سبت» (أع١٥ : ٢١).

ووفقًا للتقليد اليهودي، كان يكفي وجود عشرة رجال في مكان ما ليؤسسوا اجتماعًا دينيًّا. وإقامة مجْمع كانت تعد عملاً صالحًا يذكر بالخير. هكذا انتشرت المجامع اليهودية في أماكن كثيرة. وكان هناك عديد منها في المدن الكبيرة كالإسكندرية وروما. أما أورشليم وحدها فكان بها نحو أربعمائة مجْمع للطوائف المختلفة واليونانيين من الأقطار الأخرى (أع٦: ٩).

وصف البناء

كان عبارة عن بهو فسيح قائم الزوايا، ليس له طراز معماري خاص. أما ترتيباته من الداخل فتشبه إلى حدٍّ ما خيمة الاجتماع والهيكل. كانت فيه مقاعد، خصصت المرتفعة منها للشيوخ والأعضاء الموسرين (مت ٦:٢٣؛ يع: ٣،٢) وكان فيه منبر أو ما يشبه المنجلية للقراءة، وتابوت خشبي أو مقصورة لحفظ الكتب المقدسة، وكانت تسمى"Copheret" أو كرسي الرحمة أو هارون. وهذه تقابل قدس الأقداس في خيمة الاجتماع والهيكل. وكان هناك ضوء مقدس يُحتفظ به مشتعلاً دائمًا، رمزًا للناموس المقدس، ويقابل الضوء الذي كان موجودًا في الهيكل. ويوجد صندوقان للعطاء موضوعان بجوار الباب كما كان الحال في الهيكل، أحدهما لفقراء أورشليم، والآخر للإحسانات المحلية. كانت لا توجد زخارف للتزيين – ما عدا النباتات – لأن الوصية الثانية من الوصايا العشر تنهي بشدة عن الصورة كشيء وثني. وكان البناء يقام على أعلى بقعة في المنطقة. ولم يكن مسموحًا

لأي منزل أن يتجاوز في ارتفاع المجْمع. وفي حالة عدم وجود أرض مرتفعة لإقامة المجْمع عليها، كان يثبت عمود خشبي طويل في سقف البناء، لكي يجعله ظاهرًا.

التنظيم

كان لكل مجْمع رئيس، وعدد من الشيوخ "Zekenim" المساوين له في الرتبة، وقارئ ومترجم، وقد بدئ في استخدام المترجم عقب العودة من السبي البابلي ليترجم الدروس من العبرية إلى الكلدانية أو الآرامية، أو اليونانية أو اللغات الوطنية الأخرى. كما كان لكل مجْمع شخص أو أكثر يُرسلون في مهام بسيطة تحتاج الى انتقال، ويُدعون (مبعوثين) "Sheliach" وقندلفت "Chazzan" أو خادم للخدمات اليدوية البسيطة (لو٤: ٢٠). كما كان يوجد خُدام لجمع الصدقات وكانوا يسمون "Gabae Zedaka". وكان المجْمع عبارة عن هيئة قضائية دينية، لها السلطة أن تطرد وأن توقع عقوبات على المذنبين، قد تصل إلى الجلد. كان بكل مجْمع عشرة رجال أثرياء يحضرون كل خدماته ويمثلون الشعب. وكان كل مجْمع مستقلاً داخليًّا، لكنه في نفس الوقت، كان على صلة منتظمة بالمجامع الأخرى.

العبادة

كانت بسيطة لكنها طويلة، وتتميز بثلاثة عناصر: عنصر تعبدي، وعنصر تعليمي، وعنصر طقسي. كما اشتملت على صلوات وأناشيد وقراءات وشرح للأسفار المقدسة، وطقس الختان، وغسلات طقسية.

أما الذبائح الدموية فكانت قاصرة على الهيكل بأورشليم، وبطلت بخرابه وهدمه. كانت الصلوات والأناشيد تؤخذ أساسًا من المزامير. وكانت الصلاة الافتتاحية تتألف من بركتين افتتاحيتين، الأولى قراءة الوصايا العشر، والثانية قراءة بعض أجزاء من أسفار موسى الخمسة. يلي ذلك الثماني عشرة صلاة والبركات، وكان يتلوها قارئ، ويجاوبه الشعب آمين.

كان الجزء التعليمي والوعظي من العبادة مؤسسًا على الأسفار اليهودية. كان يقرأ درس من الناموس وآخر من الأنبياء، ويُتبعهما تفسير وعظة باللغة الآرامية الوطنية أو اليونانية. وتختم الخدمة بالبركة، ويجاوب الشعب آمين. وحيث إنه لم يكن هناك ممارسات كهنوتية خارج هيكل أورشليم فكان يمكن لأي يهودي مسن أن يقف ويقرأ الدروس ويتقدم الصلاة ويخاطب المجتمعين.

كانت أيام الخدمة العامة السبت والاثنين والخميس. وساعات الصلاة هي التاسعة صباحًا والثانية عشرة ظهرًا والثالثة بعد الظهر (الثالثة والسادسة والتاسعة بالتوقيت العبري على الترتيب). وكان يفصل بين الرجال والنساء حائط منخفض أو ستار. كان الرجال يجلسون في ناحية والنساء في ناحية أخرى كما هو الحال في الكنائس اليوم. وكان الناس يتجهون في الصلاة إلى أورشليم.

ويعكس وصف المجْمع اليهودي أعلاه مدى تأثر الكنيسة بالمجْمع بصورة كبيرة وواضحة في عمارتها، ومكوناتها، وآلية العمل بها.

مكان العبادة بين الفكرة الروحانية والكيان المعماري

يرجع البعض عدم وجود عمارة مسيحية حتى القرن الثاني إلى تأثير التوجه العام الذي كان سائدًا متمثلاً في مثالية العبادة، وما يتبعها كذلك على مكان تجمع المؤمنين. فكان التصور اليهودي لفكرة المعبد يمثل نقطة انطلاق؛ حيث تغير تصور اليهود وقت المسيح لمعبد أورشليم، معتقدين آنذاك في جو عامٍ يسوده الإيمان الشديد بالبعث والحساب، أن في نهاية العالم سيُدمر المعبد القديم «هيكل سليمان»، وسيقوم في مكانه معبد «هيكل» جديد أنشأه الله سلفًا في السماء مع الجنة، وسيهبط إلى الأرض في اليوم الآخر.

ولدت المسيحية في ظل هذه التصورات التعبدية الروحانية للديانة اليهودية. وقد أقرّ المسيح عليه السلام نفسه هذا التصور وهذا المعتقد بالنسبة لمعبد أورشليم.

ورسخ هذا التصور والاعتقاد الخاص بمعبد أورشليم في المجتمع اليهودي بصفة خاصة بعد سنة ٧٠م، حين دمر الرومان معبد «هيكل» سليمان. فانفصلت عبادة الإله عن المعبد الأرضي وتحولت لتجمعات مختلفة للمؤمنين أيًّا كان مكان التجمع.

المجْمع "Synagogue" والكنيسة "Ecclesia" : المعنى والشكل المعماري(١٣)

أماكن التجمع هذه لم تكن تحوي قدسية ما (ملمح مقدس). فلفظ المجْمع اليهودي باليونانية "συναγωγή"، وبالإنجليزية "Synagogue"، لغويًّا يعني الحشد أو التجمع أو الجمع؛ ومن ثم فهو يعني في الأصل مجموع المؤمنين، وقد يستخدم للدلالة على تجمعات مدنية أخرى. ثم أصبح يستخدم للدلالة على البناء (مكان تجمع المؤمنين)، ومن ثم كانت الممارسات التعبدية لا ترتبط بمكان أرضي لإتمامها. وهكذا فإن مكان التجمع الخاص باليهود في تلك الفترة كان مكانًا للعبادة ولكن ليس له الصفة المقدسة التي كانت لمعبد أورشليم الذي دُمر سنة ٧٠م من قبل الرومان. كانت هذه هي الرؤية الإيمانية متمثلة في أن الله موجود في كل مكان، ولا يمكن حصره في بناء معين أو محدد.

وقد نشأت التجمعات المسيحية الأولى في هذا المناخ الإيماني والتصور الروحي لعبادة الله. فأطلق على مجموعة المؤمنين المسيحيين الذين كانوا يتجمعون لأداء العبادة معًا مصطلح «إكليسيا» باليونانية "εκκλησία" وتعني لغويًّا الجمع أو الاجتماع، ثم أخذت معنى الجماعة المؤمنة المسيحية، ومكان تجمعها «الكنيسة».

وفي اليونانية الصفة "κυριακός/ή/όν" ؛ "kyriak-ós/-ē/-ón" وتعني الانتماء أو النسبة إلى "κυριός ؛ Kýrios" بمعنى «الرب»، ومنها جاء "κυριακή؛ Kyriakē" (أي يوم الأحد؛ اليوم من الرب)، و"Κυριακή προσευχή"؛ "Kyriakē proseukhē" «صلاة الرب» "Kyriakon ؛ κυριακόν"؛ بمعنى بيت الرب، والكنيسة، أو «كيرياكي إكليسيا» "κυριακή έκκλησία" وتعني كنيسة الرب"Kyriakē Ecclesiae"؛ وبالإنجليزية "Church".

ومن ثم فإن مصطلح كنيسة "έκκλησία" شأنه في ذلك شأن مصطلح "συναγωγή" لغويًّا تعني الجمع والتجمع، ثم أطلقت على جماعة المؤمنين الذين يجتمعون للتعبد بغض النظر عن مكان التجمع أو العبادة، ثم انسحب المعنى فيما بعد ليشمل مكان العبادة.

١٣- Walter Bauer, *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Other Early Christian Literature*, revised and edited by William F. Arndt, F. Wilbur Gingrich and Frederick W. Danker, 2nd ed. (Chicago: The University of Chicago Press, 1979): 240-241; N. Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική τέχνη Ναοδομία π.200-600* (Αθήνα, 1998): 14, 23.

واستنادًا إلى ما سبق، فإن مكان العبادة للمسيحيين الأُول لم يتبلور في شكل كيان معماري على أرض الواقع خلال الفترة المبكرة، بخاصة القرن الأول الميلادي. وهكذا ظل مكان العبادة في المسيحية المبكرة مجرد مكان لتجمع جماعة المؤمنين سواء في قاعات البيوت أو غيرها دون احتوائها على أي عناصر معمارية أو فنية مقدسة. وظل المعبد الحقيقي لعبادة الله من الوجهة المعمارية في هذه الفترة مجرد حلم أو رؤية؛ فظل فرضية مطروحة وموضوعًا للنقاش العميق، لكنه لم يترجم إلى كيان معماري على الأرض.

وفكرة عدم اتصال أو ضرورة ارتباط عبادة الله بكيان معماري مقدس تمثل تفردًا اتسم به تاريخ الديانات السماوية؛ حيث تمثلت في روحانية العبادة وعدم اختزالها أو تصور وجود الله بصورة مجتزأة قاصرة على مكان أو كيان معماري محدد. وقد وضح هذا في اليهودية، واستقر هذا المعنى في المسيحية المبكرة، واستمر هذا المعنى وازداد قوة ووضوحًا في الإسلام.

وهكذا كان يجتمع المؤمنون المسيحيون في الفترة المبكرة للصلاة العامة وتعلّم أمور الدين في واحدة من قاعات البيوت الكبيرة المملوكة لبعض الموسرين من المجتمع المسيحي الصغير في ذلك الوقت.

الكنائس المنزلية "House Churches ؛ Domus Ecclesiae"

كان المؤمنون المسيحيون يجتمعون للصلاة الجماعية وتعلّم أمور الدين في القرن الأول الميلادي في غرفة أو قاعة ضمن أحد المنازل الكبيرة المملوكة لأحد أفراد الجماعة المسيحية. ثم أصبح – غالبًا – في القرن الثاني المنزل بالكامل تملكه الجماعة المسيحية ويتم عليه بعض التعديلات ليصبح أكثر ملاءمة لاحتياجات المجتمع المسيحي وتطوراتها في تلك الفترة.

بعد صعود المسيح عليه السلام إلى السماء، رجع تلاميذه إلى أورشليم بفرح عظيم، وفي أورشليم اجتمعوا في العُليّة[١٤] التي كانت في بيت أم مار مرقس الكاروز. وهناك كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة، والطلبة مع نساء مؤمنات، في مقدمتهن مريم العذراء.

ويصف القديس لوقا حياة الجماعة المسيحية الأولى في عصر الرسل، فيذكر أنهم كانوا «يكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب» (اع٢: ٤٦).

١٤– يوأنس، **الكنيسة المسيحية**: ٥٦–٥٧.

وكان المؤمنون – اليهود المتنصرة – بقيادة الرسل يصعدون إلى الهيكل للعبادة، كما كان يفعل معلمهم... أما اجتماعات العبادة الخاصة فعقدوها في البيوت (اع٢: ٤٦؛ ٥: ٤٢).

ويؤكد ذلك أن المسيحيين الأُول كانوا يجتمعون ويصلُّون وينجزون وجباتهم الجماعية (أغابي "αγάπες") المتمركزة حول مباركة الخبز والخمر؛ وهي دلالة رمزية – وفقًا للمعتقد المسيحي – على تضحية المسيح "Η θυσία του Θεανθρώπου" داخل المنازل أو البيوت الخاصة[١٥].

وكانت المنازل – حيث تتم التجمعات المسيحية الأولى – لا تختلف عن غيرها بنفس المدينة في التكوين أو الخصائص المعمارية أو حتى الأثاث بأية صورة. فلم يكن هناك في تلك البيوت المذبح المقدس لإتمام مراسم أو طقوس الشكر الإلهي (الإفخاريستا أو كسر الخبز)؛ بل كانت تستخدم مفردات أثاث البيت العادية لتأدية كافة الاحتياجات الطقسية.

وفي البداية كان يتم التعميد فقط في الماء المقدس"ρέον ύδωρ"، ولكن لاحقًا ومع بدايات القرن الثاني بعد ميلاد المسيح صار يتم في أي مكان.

وفي محاولة لإعادة بناء بيت مريم أم مارمرقس الكاروز في أورشليم اجتمع تلاميذ المسيح عليه السلام في غرفته العلوية «العُليّة»؛ فهذا البيت يمثل نموذجًا للعمارة السكنية الهلينية – الرومانية في فلسطين وبلاد الشام عمومًا[١٦]. وهو نموذج ظل مستمرًّا – إلى حد كبير – في عمارة دور ومنازل الطبقة الثرية في بلاد الشام حتى القرن ١٩ م.

١٥- Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική:* 13.

١٦- Edward L. Cutts, *History of Early Christian Art* (London: Kessinger Publishing, LLC, 2004): 6-12.

تمثل كنيسة دورا أوروبوس[١٧] «الصالحية أو صالحية الفرات أو قلعة الصالحية» مدينة أثرية سورية تقع في بادية الشام قرب دير الزور – أقدم كنيسة – منزلية مؤرخة ومعروفة حتى الآن. وتم هدم هذا المنزل ضمن مجموعة من المنازل عند إعادة تحصين سور المدينة سنة ٢٥٧ م. كان المنزل يقع على أطراف المدينة عند إنشائه. وهو يمثل نموذجًا تقليديًّا للعمارة السكنية في شرق الإمبراطورية الرومانية حيث المنزل ذو الفناء.

يقود مدخل المنزل إلى ممر ضيق يوصل إلى الفناء المركزي السماوي المكشوف عبر استطراق (شكل ٣–٥). ويشرف على الفناء حجرات ذات أبعاد مختلفة من ثلاث جهات، ورواق من الجهة الرابعة. وحفر على طبقة الملاط بإحدى الحجرات تاريخ سنة ٢٣١ أو ٢٣٢ م. ومن غير المؤكد استخدام المنزل لتجمع الجماعة المسيحية بهذه المدينة في هذا التاريخ. لكن المؤكد أن البناء كان تحت يد واستخدام التجمع المسيحي في الفترة من سنة ٢٤٠ م حتى ٢٥٠ م؛ استنادًا إلى عملة عثر عليها ملتصقة بأرضية المنزل في الزاوية الشمالية الغربية للمنزل وحوض العماد والرسوم الجدارية. وخلال هذه الفترة تمت بعض التعديلات علي عمارة المنزل؛ بحيث تصبح أكثر مواءمة وتلبية لاحتياجات تجمع المصلين ككنيسة منزلية؛ حيث أُدمج الديوان (الإيوان والليوان في العمارة الشامية) الذي يقع بالجهة الجنوبية للفناء – حيث يفتح باتجاه الشمال لاستقبال الهواء المنعش – كمكان للاستقبال مجهز بوجود أرائك (مساطب) معدة بامتداد الجدران الثلاثة الداخلية مع الحجرة الجنوبية الغربية الملحقة به؛ ومن ثم أصبح لدينا قاعة مستطيلة كبيرة أبعادها ١٣×٥ مترًا؛ بحيث تتسع لحشد عدد من ٥٠ إلى ٦٠ فردًا. ووضعت منصة الأسقف لتشغل الجدار الشرقي الذي يمثل عرض المستطيل. وبالقرب منها باب يقود إلى حجرة صغيرة بها حنايا، ومن المحتمل أنها كانت تستخدم كمجلس الكنيسة.

١٧– كانت «دورا أوربوس» مدينة بابلية، ثم خضعت للفرس مع سقوط بابل (عام ٥٣٨ ق.م.) بيد الفرس بقيادة كورش، وفي (عام ٣٣٣ ق. م) ونتيجة معركة أسوس بين الفرس والمقدونيين بقيادة الإسكندر المقدوني، صارت تابعة للمقدونيين، ثم أعيد بناء دورا أوروبوس من قبل السلوقيين عام (٣٠٠ ق.م.) وأسموها «أوروبوس» نسبة إلى مدينة في مقدونيا تحمل نفس الاسم. ثم ضمها الرومان إلى دولتهم عام ١٦٥م وقاموا بتحصينها، قبل أن يحتلها الساسانيون ويدمروها عام ٢٥٦م. وفي عام ٢٥٧م قام الرومان بإعادة تحصين المدينة وسورها. للمزيد عن دورا أوربوس والحفائر عن الكنيسة المنزلية بها، انظر:
I. Rostovtzeff, *Dura-Europos and Its Art* (Oxford University Press, 1938); C. H. M. Kraeling, "The Christian Building", *The Excavations at Dura-Europo, Final Report VIII*, part 2 (London, 1967); C. Hopkins, *The Discovery of Dura-Europos* (New Haven, 1979); Annabel Jane Wharton, *Refiguring the Post Classical City: Dura-Europos, Jerash, Jerusalem, and Ravenna* (Cambridge University Press, 1995): 25 f; L. A. Dirven, *The Palmyrenes of Dura-Europos: A Study of Religious Interaction in Roman Syria* (Leiden, 1999).

وثمة فتحات أبواب كبيرة – أخذت من البناء القديم – تفتح عبرها الحجرات المطلة على الفناء؛ ومنها واحد يفتح على حجرة مستطيلة بالجهة الغربية كبيرة المساحة نسبيًّا أبعادها ٧×٤ أمتار. وتستوعب هذه الحجرة حشد نحو ٣٠ فردًا تقريبًا، وهو يمثل مكانًا ملائمًا لحشد الموعوظين؛ بحيث يسمعون قداس المؤمنين دون رؤيتهم، ولتلقي الدروس والتعاليم، ولتهيئة أنفسهم للعماد.

يوجد ثلاث فتحات أبواب تفتح على الفناء؛ حيث صالة التجمع، وحجرة مستطيلة صغيرة للعماد (معمودية) جهة الشمال. وبها حوض العماد مغطى بمظلة، ويميل بمواجهة الجدار الغربي للمعمودية. وتزين المعمودية رسومات جدارية؛ وتتركز موضوعات الرسومات الجدارية على مشاهد تتصل برمزية العماد في الفترة المسيحية المبكرة مثل خطيئة الدم، والخلاص، والبعث. وفي أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين تم قص الجدران التي كانت عليها الرسومات برفق ونقلها قطعة قطعة إلى دمشق، وعرضت في متحف دمشق الوطني.

جدير بالذكر أنه عثر في دورا أوروبس على أقدم رسم تصويري للسيد المسيح، وهذه الرسوم تمثل موضوعات الراعي الصالح، ومعجزة شفاء القعيد، والمسيح وبطرس يمشيان على الماء (شكل ٦–٩)، وهذه اللوحة موجودة حاليًّا في جامعة يالي في نيويورك. واكتشفت بعثة أمريكية في دورا أوروبوس عام ١٩٣٤ م قطعة من مخطوط كتبه «تاتانيوس السوري»، مؤسس فرقة «المتزهِّدين» وهي واحدة من سبعة مذاهب نسكية مسيحية، وهذا المخطوط باللغة اليونانية. وكان قد تُرجِم إلى عدة لغات منها اللاتينية والأرمنية والعربية. وقد علّق عليه القديس أفرام السرياني (القرن ٤ م). وهو المخطوط الوحيد المتبقي من كتابات تاتيانوس التي فُقِدَت جميعها.

وتعكس مذكرات مصادرة الأملاك المسيحية في مدن شمال إفريقيا في سنة ٣٠٣ م (أثناء اضطهاد دقلديانوس) بوضوح تخطيط الكنائس المنزلية، والوظائف المختلفة للحجرات العديدة بالمنزل. فيتنقل الجنود داخل المنزل، ويحجزون على كئوس، ومصابيح، وثريات في غرفة التجمع؛ وأغطية وملابس للفقراء في غرفة تخزين؛ ودواليب وخزانات كتب في المكتبة؛ وصناديق وأباريق وأوانٍ في غرفة الطعام.

ويلاحظ أن استخدام المساكن الخاصة كدور عبادة في هذه الفترة لم يقتصر على التجمعات المسيحية. فعلى مقربة من كنيسة منزل دورا أوروبوس سالفة الذكر يوجد كنيس منزلي يهودي كان يضم رسومات تعتبر الأجمل ومن أقدم النماذج الباقية في العالم (شكل ١٠) .

ويتكون كنيس دورا أوروبوس من منزل تقليدي يعود إلى سنة ٢٠٠ م تقريبًا، ويتكون من فناء مركزي سماوي يحيط به حجرات متباينة الأبعاد صغيرة وكبيرة. تشغل قاعة الصلاة "Synagogue" واحدة من الحجرات الكبيرة، ومن بين الحجرات الصغيرة واحدة لحفظ المقدسات، وغرفتا استقبال (ديوان)؛ ربما استخدمت واحدة كحجرة طعام، والأخرى كحجرة اجتماعات. واستبدل بهذا البناء بناء آخر سنة ٢٥٤ م يحوي قاعات أكبر في المساحة. ويتقدم قاعة (صالة) العبادة فناء زخرفت واجهاته برسوم جدارية قوام زخرفتها رسوم موزعة في أربعة صفوف متوازية، الصفوف الثلاثة العلوية عبارة عن مشاهد مقتبسة من العهد القديم، والصف السفلي يمثل صور حيواناتٍ ووجوهٍ لا علاقة لها بالمشهد العلوي، وسقف الكنيس مزين بألواح فخارية مربعة الشكل وعليها رسوم نباتية مجسدة في صورة إنسان، وما يميز هذه الرسوم طابعها الفني المحلي. ويعود تاريخ الكنيس إلى سنة ٢٥٤ م ومن أهم الكتابات الآرامية الموجودة نذكر كتابة سورية آرامية جاء فيها أن هذا المعبد قد شيّد في سنة ٥٦٥ سلوقية أي نحو سنة ٢٥٤ م.

وثمة أمر مهم يمثل قاسمًا مشتركًا بين الكنيسة المنزلية «المسيحية» والكنيس المنزلي «اليهودي» في دورا أوروبوس تجب الإشارة إليه ألا وهو الموقع. فكل منهما يقع في أطراف المدينة بجانب سورها، وهذا يعكس سبب الكتمان والمحافظة على السرية؛ حيث يكون بعيدًا عن دائرة الضوء في مركز المدينة، واشتراك الكنيسة والكنيس في ذلك يعكس أن رواد كليهما يمثلون أقلية في المدينة؛ بغض النظر عن ضرورة أن تكون البيئة المحيطة معادية لهم أم لا. وهناك تفسير آخر أن هذه الأحياء في أطراف المدينة تمثل عادة أحياء الفقراء؛ ما يشير إلى محدودية ثراء أعضاء الجماعة سواء المسيحية أو اليهودية في تلك المدينة.

الكنائس المنزلية في المدن الكبرى[١٨] (العواصم) في الإمبراطورية الرومانية سنجدها تختلف عن تلك في المدن الصغيرة في الأقاليم، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها: العدد الأكبر للمسيحيين في العواصم الكبرى، والتأثر بالسياق الحضاري والمعماري المحيط، والأشكال المعمارية المختلفة للعمارة السكنية بهذه العواصم. ومع هذه الاختلافات نجد أن الكنائس المنزلية أيًا كان مكانها تعكس طبيعة العمارة السكنية النفعية المحلية المعاصرة دون أي اختلاف في المظهر قد يميزها عن نظائرها المحيطة بها.

١٨- Krautheimer, *Early Christian*: 28-29.

وفي روما تطورت العمارة السكنية في بدايات القرن الثالث الميلادي، ويمكن تقسيمها لطرازين مختلفين، وتحت كل طراز هناك عدد من الأنماط نتيجة الاختلاف في الملحقات والتفاصيل. الطراز الأول يمثل مساكن الطبقة الثرية "Domus" وهي تمثل استمرار تقاليد العمارة السكنية الهلينستية (أو الإيطالو - هلينستية) حيث المنازل الكبيرة ذات الفناء.

بينما الطراز الثاني وهو العدد الأوفر؛ يمثل مساكن أغلب سكان روما، وهي أشبه بالبنايات السكنية متعددة الطوابق (تمثل ما يشبه الأبراج السكنية في تلك الفترة) مثلما كان يوجد بالإسكندرية وروما وأوستيا. وفي مثل هذا الطراز من المساكن يستغل الدور الأرضي عادة لأغراض تجارية نفعية مثل حمام، دكاكين أو حوانيت، مخازن أو مستودعات، وفي الشرق قد يلحق بها معصرة أو طاحون، تعلوها الوحدات السكنية في طبقات متتالية. وجدير بالذكر أن مساكن هذا الطراز ظلت مع بعض التعديلات عليها مفضلة في مدينة الإسكندرية ورشيد وروما ونابولي وغيرها طوال فترة العصور الوسطى.

وقد استخدمت التجمعات المسيحية في روما الطراز الثاني فقط (طراز الشقق أو الوحدات السكنية) للكنائس المنزلية "Domus Ecclesiae"، وعرفت هذه الكنائس المنزلية في روما باسم تيتلوس"Titulus"، وتجمع "Tituli"؛ وتيتلوس كلمة يونانية "τίτλος" بمعنى لقب أو عنوان، ومصطلح "Titulus" وُجد مكتوبًا يسبق اسم المالك على لوحة صغيرة من الرخام كانت مثبتة أعلى مدخل أحد هذه المساكن، في إشارة إلى مسمى الملكية؛ ومن ثم فهو مصطلح رسمي «وثائقي».

وقد وجد عدد كبير من هذه الكنائس المنزلية في روما يعود للقرنين الثالث والرابع الميلاديين ويصل عددها نحو ٣٠ [١٩] "Tituli"، وتحمل أسماء القديسين؛ مثل تيتلوس أناستاسيا Titulus[٢٠] Anastasia، تيتلوس بيزنطي Titulus Byzantis[٢١]، تيتلوس كليمنت[٢٢] Titulus Clementis.

١٩- S. S. Alexander, "Studies in Constantian Church Architecture", *RivAc* 49 (1973): 24 f.

٢٠- E. Junyent, "La maison romaine du titre de Sainte Anastasie", *RivAc 7* (1930): 91-106.

٢١- A. K. Ορλάνδος, *Η ξυλόστεγος παλαιοχριστιανική βασιλική της μεσογειακής λεκάνης* (Αθήναι, 1952): 7f.

٢٢- E. Junyent, *Il titolo di San Clemente* (Roma, 1932).

والكنيسة الحالية في نفس الموقع، مكرسة باسم البابا كليمنت الذي يأتي ترتيبه الثالث على كرسي القديس بطرس في روما، تعد من أروع الكنائس التي بنيت في القرن الخامس، ثم دمرها النورمان سنة ١٠٨٤م عند اقتحامهم روما بناءً على دعوة البابا جريجوري السابع إبان نزاعه مع الإمبراطور هنري الرابع، ثم أعيد بناؤها سنة ١١٠٨م في عهد البابا باسكال الثاني على نفس موقع البناء القديم.

عرفت هذه الكنائس المنزلية في تلك الفترة بأسماء أصحابها يسبقها لقب القديس، أو يستبدل اسم التيتلوس الأصلي باسم القديس؛ بحيث خصص كل تيتلوس لواحد من كرادلة "Cardinals" كنيسة روما «الكاثوليكية»، كعنوان لكنيسته.

معظم هذه الكنائس المنزلية "Tituli" في روما مازالت توجد بجوار أو تحت كنائس بنفس الأسماء أنشئت لاحقًا، وبعضها لا يزال يستخدم حتى الآن ككنائس تعمل بانتظام وتُمارس فيها الصلوات. ومن بين الكنائس المنزلية "Tituli" ذات القيمة الأثرية نجد تلك التي أسفل بازيليكا القديس كليمنت، والقديسة أناستاسيا؛ حيث تشغلان طابق منشأة سكنية كبيرة؛ لكنهما تعرضا نتيجة بناء البازيليكا أعلاهما لكثير من التدمير والتغيير[٢٣].

وأسفل كنيسة القديسين يوأنس وبافلوس يوجد "Titulus Byzantii"؛ وتخطيطه يشمل قاعة كبيرة وحجرات صغيرة تعلو طابقًا أرضيًّا مغطى بأقبية؛ مزينًا برسوم جدارية قوامها موضوعات مسيحية.

ويمثل "Titulus Equitii" نموذج الكنائس المنزلية التي حفظت بحالة جيدة؛ وهو يمثل منزلاً متعدد الطوابق، شغل الطابق الأرضي بقاعة من جناحين، سقفت بست أقبية متقاطعة (شكل ١١)، ومحاطة بحجرات جانبية مغطاة بأقبية[٢٤].

وهذه الكنائس المنزلية "Tituli" تؤرخ في الفترة من ٢٣٠ م وحتى ٤٠٠ م، وهي بصفة خاصة تميّز الفترة ما قبل تولي قنسطنطين الحكم والذي تبعه الاعتراف بالمسيحية والتي صارت الدين الرسمي للإمبراطورية، ما ترتب عليه إعادة بناء الكنائس التي كانت قد تهدمت وقت الاضطهاد الأعظم الذي بدأ سنة ٣٠٣ م، واستمر في الشرق حتى سنة ٣٠٨ م، فضلاً عن إنشاء الكنائس بمفهوم جديد يعكس رعاية الدولة وإشرافها على عمارة الكنائس، وهي مرحلة جديدة من العمارة المسيحية المبكرة.

٢٣- Krautheimer, *Early Christian*: 28-29.

٢٤- Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 25.

الكنائس العامة قبل عصر الإمبراطور قنسطنطين (أي ما قبل سنة ٣١٣ م)

نحاول هنا الإجابة عن سؤال مركب، هل كانت توجد كنائس عامة قبل عصر الإمبراطور قنسطنطين؟ وفي حالة وجودها؛ هل بقي منها أثر؟ وكيف كان تخطيطها؟

يسود اعتقاد أن القرون الثلاثة الأولى قبل عصر قنسطنطين كانت فترات اضطهاد مستمر للمسيحية والمسيحيين؛ وهو الأمر الذي ترتب عليه عدم وجود كنائس عامة في تلك الفترة، وأن ممارسة العبادة والتجمع اقتصرت على الكهوف والسراديب والأماكن السرية البعيدة عن الأعين. وهذا الأمر يستهوي البعض وهو غير صحيح تاريخيًّا فاضطهاد الدولة الرومانية للمسيحية والمسيحيين اتسم بالمحدودية الزمانية والمكانية[٢٥]؛ فبتحليل فترات الاضطهاد نجد أن اضطهاد سنة ٦٤ م كان قاصرًا على روما. بينما أول إجراء عام يُتخذ ضد المسيحية كان إبان فترة حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠ م) أي بعد فترة تصل للقرن والنصف من التسامح. ثم في القرن الثالث[٢٦] الميلادي أصدر الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس في العامين الأخيرين من حكمه (٢٠٩-٢١١ م) مرسومًا يضيق على المسيحيين ويمنع تجمعاتهم، وهو الأمر الذي انتهى بوفاته. وكان هناك اضطهاد بصورة جزئية في الفترة ٢٣٥ - ٢٣٨ م تحت حكم الإمبراطور ماكسيمين. وحاول ديكيوس القضاء على المسيحية موجهًا اضطهاده بصورة رئيسية لرجال الدين، ولم تستمر هذه المرحلة لأكثر من عام، ثم أعيدت الكرة في السنوات الأخيرة من حكم فاليريان لمدة تصل لثلاث سنوات ونصف، حتى أوقف الإمبراطور جالينوس الاضطهاد سنة ٢٦٠ م، ورد إلى المسيحيين الكنائس وممتلكاتها ومنشآتها، وجباناتها، وأقر بحق المسيحيين في التجمع؛ ما جعل البعض يرجح أن زوجته سالونينا كانت قد اعتنقت المسيحية. وفي فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) اقتصر الاضطهاد خلالها على السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه؛ حيث بدأ الاضطهاد الأعظم بمرسوم سنة ٣٠٣ م. وعلى الرغم من اعتزال دقلديانوس الحكم في سنة ٣٠٥ م فإن الاضطهاد استمر بعده بخاصة في الشرق حتى سنة ٣٠٨ م.

٢٥- Cutts, *History of Early Christian*: 24-28.

٢٦- Krautheimer, *Early Christian*: 24-25.

واستنادًا إلى ما سبق فإن فترات الاضطهاد اقتصرت على فترات زمنية قصيرة الأجل – وإن كانت بالطبع عظيمة الأثر – لا تتجاوز في مجموعها من العشرين وحتى الثلاثين سنة تقريبًا على مدار الثلاثة قرون، وإن أشدها وطأة كان في الفترة الأخيرة أي النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. ومن ثم فإن فترات التسامح مع المسيحية والتعايش بأمان في كنف الإمبراطورية الرومانية كانت تمثل فترات زمنية طويلة ومستقرة إلى حدٍّ كبير؛ وهو الأمر الذي ترتب عليه انتشار المسيحية وزيادة عدد أتباعها من جهة واستقرار تنظيم هيكلها الكنسي من جهة أخرى. وانعكس ذلك بالتأكيد على عمارة دور العبادة والتجمع للمسيحيين طوال هذه الفترة.

تؤكد الكتابات التاريخية فكرة وجود كنائس عامة قبل عصر الإمبراطور قنسطنطين. فضلاً عن الكنائس المنزلية فيذكر مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس Eusebius: «أنه في الجزء الأخير من القرن الثالث أي خلال الأربعين سنة من التسامح التي نعم بها المسيحيون قبل الاضطهاد الكبير سنة ٣٠٣ م، قام المسيحيون غير الراضين عن مبانيهم القديمة ببناء كنائس واسعة في كل المدن»[٢٧]. ويدعم هذا الرأي ما ذكره المؤرخ يوسيبيوس أيضًا لما تم من هدم للكنائس في فترة الاضطهاد الأكبر، ووصفه لبعض هذه الكنائس ضمنيًّا. وقد نجم بالتأكيد عن فترة الاضطهاد الأكبر إضافةً إلى عوامل أخرى مثل عوامل الزمن والزلازل وغيرها ندرة الكنائس التي بقيت وتعود إلى فترة ما قبل عصر الإمبراطور قنسطنطين (قبل سنة ٣١٣ م).

وهكذا نستطيع القول باطمئنان: نعم، كانت هناك كنائس عامة قبل عصر الإمبراطور قنسطنطين، وهنا يطرح السؤال الثاني نفسه هل بقيت كنائس تعود لهذه الفترة المبكرة قبل عصر قنسطنطين؟

من الصعب القول إن هناك كنائس عامة كاملة أو تحتفظ بتخطيطها وعناصرها الأصلية تعود للفترة قبل عصر قنسطنطين، وليس مردّ ذلك فقط لهدم الكنائس الذي تم فترة الاضطهاد الأعظم بعد سنة ٣٠٣ م، بل كذلك عوامل الزمن وأعمال التجديد والتوسعة وإعادة البناء التي تمت على الآثار المبكرة بصفة عامة.

٢٧– مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٣٥.

ومن نماذج الكنائس قبل عصر قسطنطين كنيسة "Etchmiazin" في أرمينيا[٢٨]، والتي تعد أقدم كنيسة دولة (٣٠١–٣٠٣ م)؛ جددت سنة ٤٨٠ م، وأعيد بناؤها سنة ٦١٨ م، وتمثل مركز الكنيسة الرسولية الأرمينية)؛ حيث اعترف قائد أرمينيا بالمسيحية كدين رسمي في بداية القرن الرابع وقبل مرسوم ميلانو، وأنشأ هذه الكنيسة. وهناك أيضًا كنيسة "S. Crisogono" في روما.

بينما توجد غالبية النماذج الباقية لهذه الفترة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، فنجدها في بلاد الشام والعراق وشمال إفريقيا وآسيا الوسطى. يُذكر أن مدينة الرها «وتعرف قديمًا بإديسا "Eddessa"، و أُورفا "Urfa" قام ملكها Abgarus الذي حكم في الفترة ما بين ١٦٠–١٧٠ م باستبدال الرموز الوثنية على السكة بشارات مسيحية، وشيد كنيسة دُمرت في طوفان سنة ٢٠٢ م. وأعيد بناؤها ولازالت آثار هذه الكنيسة باقية، وهي ذات تخطيط بازيليكي[٢٩] متأثر بالعمارة الرومانية (الكلاسيكية)».

وتوجد كنيستان بديار بكر ونصيبين تعودان لهذه الفترة (قبل عصر قسطنطين) وتعدان من أقدم الكنائس المبكرة. وتتسم كنيسة ديار بكر "SS. Cosmas and Damian" بوضوح ملامح العمارة الكلاسيكية بها مثلما نجد في تيجان الأعمدة (شكل ١٢). وتتميز كنيسة نصيبين بحالة جيدة من الحفظ، وكلتاهما تتبع التخطيط البازيليكي.

وفي وسط وشمال سوريا يوجد عدد كبير من أطلال المدن الرومانية التي تعود لتلك الفترة، والتي عُمرت أو استمر عمرانها حتى الفتح الإسلامي لهذه المناطق، فهجرت هذه المناطق على حالتها آنذاك؛ حيث إن المسلمين لم يسكنوا هذه المدن أو يهدموها للبناء عليها أو محلها، وإنما فضلوا أن يشيدوا مدنًا جديدة خاصة بهم.

فنجد من آثار هذه المناطق بسوريا كنيسة شقا "Chaqqa" (شكل ١٣)، ويعتبرها Vogüé أقدم الكنائس المسيحية الباقية؛ حيث يؤرخها بنهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي. مسقط كنيسة شقا "Chaqqa" مستطيل ذو أبعاد ١٨,٣٠ × ١٩,٨٠م (المحور الشرقي – الغربي × المحور الشمالي الجنوبي على الترتيب)، ويبلغ ارتفاع واجهتها ٨,٣٦ م، وتختلف كنيسة شقا "Chaqqa"

٢٨- Cutts, *History of Early Christian*: 36.

٢٩- *Ibid.*

في تخطيطها عن التخطيط البازيليكي التقليدي؛ حيث يُلاحظ أن المسافات بين أعمدة البائكات داخل الكنيسة ليست متساوية على عكس المألوف. فنجد أن كل بائكة تتكون من عقد أوسط متسع، وعلى كلٍ من جانبيه عقد ذو فتحة صغيرة. ويذكر Vogüé أنه كان يعلو كلاً من الرواقين الجانبين طابق علوي (شرفة فسيحة). وبناء الكنيسة غير متقن؛ مبني بالأحجار دون مادة رابطة باستثناء الواجهة والدعامات(٣٠).

وفي سوريا أيضًا كنيسة تفكا "Taffka"، وتتميز بوجود صومعة بالزاوية الشمالية للكنيسة ويؤرخها Vogüé بالقرن الثالث الميلادي. والرواق الأوسط بها أكثر اتساعًا وارتفاعًا من الرواقين الجانبيين؛ فيرتفع الرواق الأوسط بارتفاع طابقين معًا، بينما كلٌّ من الرواقين الجانبيين يتكون من طابقين يشرفان على الرواق الأوسط ببائكة معقودة. والبناء بالكامل من الحجر(٣١).

وهناك العديد من هذه المواقع (التجمعات) المسيحية المبكرة في شمال إفريقيا(٣٢) في ليبيا وتونس والجزائر. من هذه المواقع نذكر سبيطلة Sufetulu، ومنحدرات الأوراس Aures في تونس، وفي الجزائر تازولت، Lamboesis وتيمقاد Thamugas، وتبسة Tébessa أو Theveste. وهذه المواقع ثرية بعدد وفير من أطلال الكنائس المبكرة، وجميعها – مع استثناءات نادرة – يتبع التخطيط البازيليكي(٣٣).

وتمثل كنيسة تبسة بالجزائر أحد المعالم التاريخية النادرة في العالم بأسره، والتي بقيت محافظة على طابعها المعماري الأصلي. اكتشفها العالم ستيفن قزيل سنة ١٩٠١ م، ونسب بناءها إلى العصر الروماني المتأخر، حيث كانت المسيحية في فترة الانتشار. وفي سنة ١٩٤٤ م، عُثر على قبوة وهي عبارة عن مصلى تحت الأرض، أقيمت الكنيسة فوقها. وكرّست هذه الكنيسة إلى القديسة كريسبين آنذاك. ويرجح Vogüé أنها كانت بازيليكا رومانية مدنية ثم حولت لكنيسة.

٣٠- *Ibid.*

٣١- *Ibid.*

٣٢- F. Warren Wright, "A Trip to Tunisia and Eastern Algeria", *The Classical Journal* 21, no. 4 (Jan 1926): 260-267; "Pilgrimage to the Sacred Ruins of the Basilicas of Africa", *The Catholic Historical Review* 10, no. 1 (Apr 1924): 90-91.

٣٣- Krautheimer, *Early Christian:* 41-42.

وتنقسم عمارة هذه الكنيسة الرومانية إلى قسمين، القسم الأول عبارة عن حديقة مقسمة إلى أربعة أقسام على شكل صليب، والقسم الآخر يضم الكنيسة الرئيسية. لها مدخل واحد على شكل قوس ويقطعها ممر طوله ٥٢ م مبلط بحجارة صلبة، على يمينه يوجد مدخل الكنيسة من جهة المدرج ثم الرواق والمكان المربع الذي لم يبقَ منه إلا حافته السفلية ومن خلالها يشدك المنظر إلى الصحن. روعة التصميم في هذا المعلم تتمثل في القاعة الكبيرة المقسمة بأعمدة دائرية تحمل أقواسًا وأخرى مربعة وجميع قاعاتها مبلطة بالفسيفساء. يجاور هذه الكنيسة قاعات لتعليم الدين وإسطبلات للخيول ومرقد. هذه الكنيسة هي واحدة من أقدم وأكبر الكنائس المبكرة «الرومانية».

تمثل كنيسة مدينة جميلة "Djemila" في الجزائر واحدة من الكنائس العامة المبكرة[٣٤]. وتقع الكنيسة في الجزء الغربي من الفوروم. وقد ترك الرومان معالم كثيرة تدل على وجود المسيحية في الجزائر في هذه الفترة المبكرة، منها كنيستان مزخرفتان بمختلف أنواع الفسيفساء والنقوش الحجرية الخلابة وكنيسة صغيرة ومساكن خاصة تخدم رجال الدين.

ويلاحظ أن جميع النماذج التي ذكرت فضلاً عن كنائس عصر قنسطنطين – كما سيتضح – تتبع التخطيط البازيليكي ولذا تعرف بالبازيليكا؛ وسوف نعرض لمعنى البازيليكا وسمات هذا التخطيط.

٣٤- Cutts, *History of Early Christian*: 39.

البازيليكا[٣٥]

كلمة «بازيليكا أو باسيليكا» هي كلمة لاتينية "Basilica" مشتقة من اليونانية "Βασιλικά"، اسم نسبة إلى الملك Βασιλιός أو الملكية، ومنها "Βασιλική στοά" بمعنى الرواق الملكي أو القاعة الملكية؛ ومن ثم فإن بازيليكا في العمارة اليونانية تشير إلى النسبة أو التبعية للملك أكثر من الشكل أو الوظيفة. وأخذها الرومان عن اليونانيين – كدلالة على قوة تأثير الحضارة اليونانية – واتسعت دلالة مصطلح البازيليكا في العمارة الرومانية؛ بحيث لم تعد تقتصر على النسبة الملكية (قاعة الملك اليونانية). وارتبطت البازيليكا بالعمارة المدنية الرومانية بصفة عامة؛ فهي تصف شكلاً معماريًّا انتشر في العمارة المدنية الرومانية باستخدامات متعددة. فنجد المحكمة أو دار القضاء بالساحة الرومانية "Forum"، والسوق (كمقر كبار التجار ومركز للمعاملات التجارية) بالساحة الرومانية "Forum"، وقاعة الاستقبال الرئيسية بالقصور الرومانية، وردهة للمجالس، وأيضًا قاعة الحمام الرئيسية أخذت نفس تخطيط البازيليكا. وهكذا انتشرت البازيليكا كشكل معماري في كافة المدن الرومانية، وأصبحت جزءًا رئيسيًّا يلحق بالسوق الرومانية "Αγορά" في (أو بالقرب من) الساحة الرئيسية للمدينة الرومانية.

ورغم تعدد الاستخدامات الوظيفية للبازيليكا كشكل معماري؛ فيمكن تعريفها في العموم بأنها كانت في العمارة الرومانية تمثل صالة تجمع أو اجتماع جمهور كبير لغرض غير التعبد؛ وهي الوظيفة المشتركة في كافة الاستخدامات.

وكما تعددت وظائف البازيليكا الرومانية فلم يكن لها كذلك شكل معماري نموذجي؛ فالبازيليكا عرفت في المدن الرومانية منذ القرن الأول الميلادي وعلى امتداد أربعة قرون ظهرت بأنماط مختلفة. فتمثل البازيليكا الرومانية في أبسط أشكالها المعمارية صالة مستطيلة كبيرة بدون بوائك داخلية، وأحيانًا تقسم الصالة بواسطة دعامات، وفي الشكل المعماري المتطور لها نجد أن البازيليكا الرومانية

٣٥- W. Boston Smith, ed., *Dictionary of Greek and Roman Antiquities* (n.p., 1848): 98-200; Bauer, *A Greek-English Lexicon* (n.p., [19--]): 134-137; Ορλάνδος, *Η ξυλόστεγος παλαιοχριστιανική βασιλική*: 60 f ; J. G. Davies, *The Origin and Development of Early Christian Church Architecture* (London, 1952); Krautheimer, *Early Christian:* 41-43; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική:* 31-32.

تمثل صالة مستطيلة كبيرة مقسمة إلى رواق أوسط يدور حوله رواق أو أكثر تفصل بينهما بائكة أو أكثر بحسب عددها، وقد تأتي هذه الأروقة الجانبية في طابقين (مستويين)؛ بحيث يشرف الطابق العلوي (عبارة عن شرفات فسيحة) على الرواق الأوسط؛ وقد تكون الأروقة الجانبية موازية للرواق الأوسط دون أن تحيط به بصورة كاملة. ومدخل البازيليكا يكون بالضلع القصير للمستطيل أو بالضلع الطويل وقد يوجد بكليهما معًا في نفس البناء. وسقف الرواق الأوسط عادة يكون مرتفعًا، وأسقف البازيليكا في الغالب مستوية من الخشب، أو مقببة من الآجر. ومن أجمل البازيليكات الرومانية بازيليكا سيبتيموس سيفيروس بمدينة لبدة العظمى في ليبيا.

ومع بداية القرن الرابع الميلادي وُجد تنوع في تخطيط البازيليكا الرومانية؛ وظلت كتصميم قابل للتعديل والتطوير بحسب الاستخدامات المتجددة، ولم تتحدد في قالب معماري ثابت شأن المعابد الرومانية.

وكان أكثر الأشكال المعمارية شيوعًا للبازيليكا هو مساحة مستطيلة تصميمها على المحور الطولي بدون بوائك وتنتهي بحنية كبيرة مرتفعة تهيمن على الشكل العام للبازيليكا، وبجدران البازيليكا نوافذ ضخمة في صف واحد أو صفين تضيء الداخل. وتبعًا لنمط العمارة الرومانية في هذه الفترة فإن الواجهات الخارجية بسيطة، والداخل مزين بالتكسيات الرخامية، والتذهيب خاصة بتيجان الأعمدة والأسقف. ومن نماذج البازيليكا التي تعود لهذه الفترة بازيليكا القصر بساحة أرمرينيا بصقلية، بازيليكتان بالساحة الرومانية بمدينة سطيف Setif بالجزائر، وبازيليكا الساحة الرومانية في روما (ساحة فسبسيان أو ساحة السلام) والمعروفة الآن بكنيسة "Cosmas and Damian"[٣٦].

وتمثل بازيليكا القصر الروماني بمدينة Trier بألمانيا (٣٠٥ - ٣١٢ م، تستخدم ككنيسة بروتستانتية حاليًّا) البازيلكيا الوحيدة الباقية كاملة ومرتبطة بهذه الفترة المبكرة، وتنسب بشكل مؤكد للإمبراطور قنسطنطين. وهي بازيليكا ذات رواق واحد، وتنتهي بحنية نصف دائرية، بجدرانها صفّان من النوافذ المعقودة الضخمة، وسقفها مستوٍ (شكل ١٤-١٥).

٣٦- Krautheimer, *Early Christian*: 41-42.

الكنيسة البازيليكية والأصول المعمارية

عدم تأثر عمارة الكنائس بعمارة أماكن العبادة الوثنية أمر واضح ومفهوم، ويرجع لسببين رئيسيين: الأول نفسي يتعلق برغبة المسيحيين في عدم إحياء الشكل المعماري المقترن بالعبادات الوثنية، والثاني عملي لعدم قدرة الأشكال المعمارية لهذه الأماكن على الوفاء بمتطلبات العبادة المسيحية وتجمع أعداد كبيرة، واحتياج أماكن متعددة لأغراض مختلفة، فضلاً عن الأنشطة المتنامية للكنيسة في هذه الفترة، وما يتبع ذلك من الحاجة لوجود أماكن كثيرة.

وجدير بالذكر في هذا الصدد التأكيد على خصوصية العمارة المسيحية في مصر «العمارة القبطية» فيرى بعض المتخصصين في العمارة القبطية أن أصل التخطيط البازيليكي هو قاعة الأعمدة الضخمة "Hypostyle" في المعابد المصرية القديمة، ويرجح البعض أن البازيليكا الرومانية ذاتها كان مصدرها العمارة المصرية القديمة[٣٧]، وسوف نناقش كل هذه النظريات في مبحث تالٍ عن خصوصية العمارة القبطية.

وتتنوع النظريات حول الأصل المعماري للتخطيط البازيليكي الذي تأثرت به عمارة الكنائس المسيحية المبكرة، وظل مستخدمًا على مر القرون، وشمل كافة الأماكن جغرافيًا حتى اكتسب صفة العالمية عن جدارة. فبينما اتفق معظم الباحثين في مجال العمارة المسيحية بصفة عامة على اعتبار البازيليكا (أو الباسيليكا) الرومانية هي المصدر المباشر للتخطيط البازيليكي للكنيسة، تنوعت آراؤهم حول أية واحدة، فالبازيليكا الرومانية استخدمت لأغراض وظيفية متعددة؛ مثل السكنى، دار القضاء، السوق، الحمام.

وهذه الدراسة تتبنى الرأي بأن صالات الاستقبال في البيوت الرومانية تمثل الأصول المعمارية للبازيليكا المسيحية؛ وذلك ليس فقط لتأثير تشابه الشكل المعماري، ولكن لتأثير عمارة الكنيسة المنزلية التي سادت لفترة طويلة وتعودت عليها التجمعات المسيحية، فمن المقبول أنه عندما تتاح الفرصة لبناء كنائس عامة كبيرة يكون هذا النموذج والذي طبق عمليًا وتم استخدامه هو مصدر الإيحاء لعمارة الكنائس على مقياس كبير ومع بعض التعديلات اللازمة والتي خبروها بالممارسة.

٣٧- شيحة، **دراسات في العمارة**: ٥٨-٦١.

وهذا التحليل من تأثير عمارة الكنيسة المنزلية على عمارة الكنائس المبكرة سيساعدنا كذلك على فهم وظيفة تخطيط البازيليكا المزدوجة والتي انتشر تخطيطها في القرن الرابع الميلادي، حيث إن أقدم الكنائس الباقية لعصر قنسطنطين تتبع هذا التخطيط.

البازيليكا المسيحية

شكلت البازيليكا في الشرق والغرب على السواء النموذج المعماري للكنائس الأسقفية والأبرشية وكنائس الأديرة وذلك بصفة خاصة في الفترة من القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس الميلادي. ولذا لزامًا علينا أن نعرض بشيء من التفصيل لعمارة البازيليكا وأجزائها ومكوناتها حتى يمكننا الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين نماذج البازيليكا التي تعود لهذه الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلاديَّين.

يمكن القول إنه رغم تواجد العناصر والوحدات المعمارية المكونة للبازيليكا المسيحية في صور مختلفة في العمارة الرومانية المدنية؛ فإن البازيليكا المسيحية جاءت في شكلها النهائي شكلاً معماريًّا متمايزًا، وغير منسوخ عن نموذج كامل من العمارة القديمة؛ بغرض تلبية احتياجات الديانة الجديدة. وهذا أمر بديهي حيث إن المسيحية كديانة تمثل محددًا جديدًا أو عاملاً جوهريًّا مؤثرًا في إعادة صياغة المفردات المعمارية المتاحة واستيعابها من أجل تصميم كيان معماري جديد نسبيًّا – يتطور مع مرور الوقت – لعمارة دار عبادة للمؤمنين بها.

وجاء هذا الكيان المعماري الجديد بالتأكيد بصورة تطبيقية مختلفة باختلاف أقاليم وولايات الإمبراطورية الرومانية حيث انتشرت المسيحية، فلم يكن ثمة أنموذج موحد يصدر عن مصدر مركزي واحد للتطبيق في كافة الولايات؛ وإنما تأثر تخطيط وعمارة وتفاصيل كل كنيسة بعوامل متعددة لعل أهمها تتعلق بالمنشئ أو الراعي ومدى إمكاناته، والمواد الخام ومدى توافرها، والتراث المعماري المحلي الموروث فضلاً عن الخبرة المعمارية الموروثة والمرتبطة به.

فراعي البناء قد يكون الإمبراطور نفسه، ما ينعكس بالضرورة على مدى فخامة وضخامة وثراء الكنيسة كدلالة على مكانة وثروة الإمبراطور والدولة؛ ويبدو ذلك بجلاء في رسالة أرسلها الإمبراطور

قسطنطين إلى مكاريوس Macarius أسقف القدس فيما يتعلق ببناء كنيسة القيامة[٣٨] سنة **٣٢٦** م وتُصدَّر الرسالة برغبة الإمبراطور في أن تعكس عمارة الكنيسة مكانته فكتب: «نرغب أن تكون هذه الكنيسة الأجمل في العالم». وقد يكون المنشئ أسقفية مدينة أو جماعة من المؤمنين المتبرعين وتتباين في ذلك القدرة المالية من مكان لآخر ما ينعكس بالضرورة على عمارة الكنيسة.

وعن تأثير توافر المواد الخام في البيئة المحلية وكذلك الخبرة المحلية في التعامل مع مواد البناء فهذا أمر وثيق الصلة بالعمارة وبالشكل المعماري بخاصة مع اتساع أراضي الإمبراطورية الرومانية؛ فنجد أن مناطق مثل سوريا وبلاد الشام وشمال إفريقيا تستخدم الأحجار كمادة رئيسية للبناء، بينما بلاد اليونان والبلقان تستخدم مزيجًا من الحجارة والآجر معًا، بينما يمثل الرخام مادة محورية في بناء الكنائس خاصة الأعمدة. والرخام غير متوافر في بلاد الشام وبعض مناطق شمال إفريقيا، في حين توافر في بلاد اليونان وإيطاليا. ولأهمية مثل هذا الأمر نجد أن الإمبراطور قنسطنطين في رسالته إلى أسقف القدس مكاريوس Macarius سالفة الذكر يذكر له أن على الأسقف أن يتصل بالإمبراطور مباشرة فيما يخص نقطتين؛ أولاهما هي نوع وكمية الرخام المطلوب.

وفي وثيقة تتعلق ببناء كاتدرائية غزة[٣٩] في الفترة بين **٤٠٢ – ٤٠٧** م، وكانت مشروعًا مولاً من الدولة، تذكر الوثيقة أن الأعمدة الرخامية قد أرسلتها الإمبراطورة إفذوخيا، وعددها **٣٢** عمودًا من رخام كارستوس (الأخضر المعرق من جزيرة أيوبيا)، للتأكيد على أهمية الرخام والأعمدة الرخامية بخاصة وأنها ستؤثر في شكل وتخطيط البناء.

وهذه العوامل مجتمعة أدت إلى وجود طرز وأنماط مختلفة لعمارة البازيليكا المسيحية؛ ويتم تصنيف البازيليكا في العمارة المسيحية المبكرة لنوعين رئيسيين – ولكل منهما طرز وأنماط مختلفة – بحسب نظام التسقيف، وهما البازيليكا اليونانية، والبازيليكا الشرقية.

٣٨– للاستزادة، انظر:

Eusebius, "Vita Constantini", chap. 30, 31 in *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, vol. III, Second Series (Grand Rapids, 1961): 528; T. Armstrong Gregory, "Constantine's Churches: Symbol and Structure", *Journal of the Society of Architectural Historians* 33, no. 1 (Mar 1974): 1.

٣٩– مانجو، **العمارة البيزنطية**: ١٦.

البازيليكا اليونانية[٤٠]

في البازيليكا اليونانية يكون سقف الكنيسة من الخشب، وعرفت بهذا الاسم لأنها انتشرت في ولايات العالم اليوناني – الروماني على امتداد شواطئ حوض البحر المتوسط. المساحة الرئيسية لهذا النوع من البازيليكا تُقسم بواسطة صفوف من الأعمدة إلى ثلاثة وحتى تسعة أروقة. والشائع منها البازيليكا ذات الثلاثة والخمسة أروقة، وفي حالات قليلة نجد في شمال إفريقيا نماذج ذات سبعة وتسعة أروقة.

وفي هذا التخطيط – كما هو معتاد في التخطيط البازيليكي بصفة عامة – يكون الرواق الأوسط أكثر اتساعًا وارتفاعًا عن بقية الأروقة. ونتيجة الارتفاع الزائد للرواق الأوسط عن الأروقة الجانبية يتكون منور الكنيسة "Clerestory"؛ وهو يمثل الجزء الأكثر ارتفاعًا من سقف الكنيسة وتشتمل جدرانه في المساحة المرتفعة فوق أسقف الأروقة الجانبية على صف من النوافذ لإضاءة البازيليكا من الداخل (شكل ١٧).

البازيليكا الشرقية[٤١]

سقف البازيليكا الشرقية يكون مغطى بقبو أسطواني (أو برميلي)، وهذا النوع من البازيليكا منتشر في الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية، في العراق ووسط سوريا وآسيا الصغرى، وبصورة نادرة في أماكن أخرى. وتقسم البازيليكا الشرقية من الداخل إلى ثلاثة أروقة بواسطة صفين من الدعامات، وتغطى بقبو أسطواني بامتداد المحور الطولي للبازيليكا. عادة يكون القبو بمقياس واحد يغطي كامل البازيليكا.

وفي حالات قليلة يكون القبو أعلى الرواق الأوسط أكثر ارتفاعًا – متأثرًا في ذلك بالأسقف الخشبية للبازيليكا اليونانية – حيث يحوي نوافذ قليلة ومتباعدة تعمل على إضاءة داخل البازيليكا.

٤٠– Γ. Σωτηρίου, *Χριστιανική και Βυζαντινή Αρχαιολογία* (Αθήναι, 1942): 170 f ; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 36.

٤١– Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 36.

وفي حالات نادرة مثل نموذج أفرانيتيزا "Αυρανίτιδα" (حوران، بسوريا)، نجد أسقف الكنائس البازيليكية عبارة عن أسقف مسطحة من بلاطات حجرية كبيرة، ترتكز بدورها على عقود حجرية ضخمة بعرض البازيليكا، وتتكرر على مسافات بينية (أقل من حجم البلاطات التي تعلوها) بامتداد المحور الطولي للبازيليكا.

وفي الواقع هذا التصنيف غير دقيق من الناحية الجغرافية فنجد الكنائس في سوريا ذات أسقف خشبية ولها فرق منسوب "Clerestory" الذي تضيء نوافذه داخل الكنيسة، بينما في الأناضول وفي أرمينيا تسقف الكنائس بواسطة العقود، وفي أرمينيا انتشرت الأسقف الجمالونية والتي تغطي الرواق الوسط والأجنحة معًا؛ ولذا نجد داخل الكنائس كان معتمًا لندرة النوافذ. ومن ثم فيمكن اعتماد هذا التصنيف على أساس نمط التسقيف وليس على الأساس الجغرافي.

وبعيدًا عن عدد الأروقة الداخلية التي تقسم إليها المساحة الرئيسية للكنيسة بواسطة صفوف من الأعمدة أو الدعامات كمحدد لتصنيف كنائس كلا نوعي البازيليكا (اليونانية والشرقية) إلى طرز وأنماط مختلفة؛ فهناك عناصر معمارية أخرى مهمة تحدد هذا التصنيف نذكر منها المجاز القاطع[٤٢] "Transept"؛ وهو رواق أو بلاطة مستعرضة في الجزء الشرقي تتعامد على المحور الطولي للبازيليكا مكونة معه شكل حرف T، وتفصل بين صحن الكنيسة وبين الحنية. وظهر مثل هذا التخطيط في فترة مبكرة في بدايات القرن الرابع الميلادي مثل كنيسة القديس بطرس في روما (شكل ١٩-٢٣).

وفي بعض الكنائس يفصل المجاز القاطع عن صحن الكنيسة تكوين من ثلاثة عقود مشابهة لقوس النصر؛ ويمثل هنا فاصلاً عرضيًّا للكنيسة يقطع استمرارية محورها الطولي نحو الحنية. وكغرض إنشائي يساعد مثل هذا التكوين المعماري في تدعيم السقف أكثر. وفي تفسير رمزي هذا التكوين يعتقد أن يمثل فاصلاً بين العالم الأرضي والعالم السماوى الذي يلي[٤٣].

٤٢- تتعدد النظريات حول الغرض الوظيفي للمجاز القاطع ؛ فمنها أن الغرض يتعلق بطقوس صلاة الشكر وتطورها؛ حيث احتياجها لمكان متسع حول المذبح. وتفسير ثانٍ يربط بين المجاز القاطع وتكريس الكنيسة للشهداء؛ والذين توجد مقابرهم بصفة خاصة في كنائس روما أسفل موقع طاولة المذبح المقدسة. ومن ثم فإن الموقع المتسع أعلى قبر القديس الشهيد يسهل حركة الذين يحجون لهذا الموقع، ويتجمعون في هذا المكان. ويرى البعض أن وجود المجاز القاطع خاصة في البازيليكات الكبيرة ذات الخمسة أروقة هو سبب جمالي لا أكثر. للمزيد، انظر: *Ibid.*: 37-38.

٤٣- *Ibid.*: 38.

عادة تأخُذ النهايات الجانبية للمجاز القاطع شكلاً مستقيمًا، وفي حالات قليلة تأخذ شكلاً نصف دائري. المجاز القاطع قد يكون مكانًا مفتوحًا من الداخل، وقد يقسم إلى أجزاء[٤٤] بواسطة دعامات؛ وفي الحالة الأخيرة تكون هذه الدعامات إما امتدادًا لدعامات بوائك أروقة الكنيسة الطولية، وإما دعامات على غير امتداد بوائك أروقة البازيليكا الطولية، فتأخذ في المسقط الأفقي في هذه الحالة إما شكل حرفي Γ أو حرفي Π متواجهين مثل كنيسة القديس ذيمتريوس في ثيسالونيكى (شكل ٢٤-٢٥، وانظر أشكال ١٦، ١٩، ٤٢).

وهناك طراز آخر من البازيليكا متطور ومركب؛ يعرف باسم البازيليكا صليبية الشكل - وهي تمثل تطورًا لعمارة أضرحة أو كنائس الشهداء[٤٥] ذات التخطيط على شكل صليب، وعادة تكون صغيرة في مساحتها وأبعادها، وهي تبنى أعلى قبر أحد الشهداء أو موقع مقدس- ويقسم أورلانذو Orlandos هذا الطراز إلى أربعة[٤٦] أنماط على النحو التالي:

النمط الأول: تكون فيه أذرع الصليب متساوية الأبعاد وكل منها مكون من رواق واحد ويسقفها سقف خشبي مزدوج. والمربع المركزي الناتج عن تقاطع أذرع الصليب يسقف عادة بقبة أكثر ارتفاعًا عن بقية الأسقف، وترتكز على أربعة عقود عبر منطقة انتقال تمثل رقبة القبة. وهذا النمط من الكنائس ظهر في القرن الرابع الميلادي، ويمثل مرحلة انتقالية بين عمارة كنائس الشهداء ذات التخطيط على شكل صليب صغيرة المساحة، وبين الكنائس مركزية التخطيط على شكل صليب والتي نفذت على مقياس أكبر، وتكون أذرع الصليب فيها غير متساوية (النمط الثاني)، والنماذج المبكرة لهذا التخطيط مثل كنيسة بابيلاس (٣٨١ م) في أنطاكية (شكل ٢٦)، وكنيسة الرسل المقدسين (القرن الرابع الميلادي) في ميلانو (شكل ٢٧)، ومصلى الصليب المقدس (أو ضريح غالا بلاسيديا، النصف الأول من القرن الخامس الميلادي) برافينا (شكل ٢٨-٢٨أ).

٤٤- R. Krautheimer, "S. Pietro in Vincoli and the Tripartite Transept in the Early Christian Basilica", *Proceedings of the American Philosophical Society* 84, no. 3 (31 May 1941): 353-429.

٤٥- سنتناول هذا النوع من التخطيط بشيء من التفصيل عند التحدث عن كنائس الشهداء أو الكنائس مركزية التخطيط.

٤٦- A. Ορλάνδος, "Τυπολογική εξέτασεις των σταυρικών ναών του 4ου, 5ου και 6ου αιώνες", *Αρχείον Βυζαντινών Μνημείων της Ελλάδος* 7 (1951): 46-60.

النمط الثاني: وتكون فيها أذرع الصليب متباينة الطول والاتساع (العرض)؛ حيث يكون عادة الذراع الغربي أكثر طولاً واتساعًا، بينما يقتصر الذراع الشرقي للصليب على الحنية. وسقف هذا النوع من التخطيط إما أن يكون سقفًا واحدًا مرتفعًا جدًّا؛ بحيث يغطي الأذرع الأربعة والمربع المحصور بينها، وإما أن يُغطَّى المربع المركزي بقبة عالية وتُغطى الذرى بأسقف منفصلة منخفضة. وتمثل كنيسة الرسل المقدسين في القنسطنطينية (بناها الإمبراطور قنسطنطين، أو خليفته قسطنطيوس) نموذجًا لهذا التخطيط (شكل ٢٩)، ومن كنائس هذا النمط كذلك كنيسة القديس يوأنس في إفسوس (شكل ٣٠).

النمط الثالث: وفي هذا النمط يتكون في مركز تقاطع أذرع الصليب مثمن بدلاً من المربع التقليدي؛ وتشكل أركان المثمن بالزوايا على شكل حنايا، ويُغطى المثمن بقبة وقد يترك سماويًّا مكشوفًا[٤٧]. وتمثل كنيسة القديس سمعان العمودي[٤٨] بقلعة سمعان في شمال سوريا بين حلب وأنطاكية نموذجًا لهذا النمط (شكل ٢٧–٢٨). وقد بنيت كنيسة القلعة في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي؛ ولم تكن كنيسة ضريح بل كنيسة تذكارية بنيت حول عمود القديس سمعان (شكل ٣١–٣٢).

والكنيسة على شكل صليب (نحو ٩٤,٥ × ٨٥,٥ مترًا، المحور الطولي من الشرق إلى الغرب)، وفي الوسط يقوم مثمن يضم العمود الذي ارتبط بالقديس سمعان ونسب إليه، ولا تزال قاعدة العمود موجودة حتى الآن. وتنطلق من المثمن الأذرع الأربعة للصليب في شكل أربع بازيليكات أطولها الشرقية؛ والتي تنتهي بثلاث حنايا

٤٧– ذكر أورلاندو ذلك استنادًا إلى نموذج كنيسة قلعة سمعان حيث لم يوجد سقف للمثمن المركزي، بينما يرى مانجو أن السقف كان مخروطي الشكل. وهذا الاختلاف ناتج عن أن سقف المثمن غير موجود منذ نهاية القرن السادس الميلادي. وفكرة أن المثمن قد يكون سماويًّا مكشوفًا غير مقنعة في مثل هذا النوع من التخطيط وفي ظل هذا المكان ذي المناخ البارد المطير شتاءً؛ وأعتقد أن السقف كان خشبيًّا سواء كان قبة أو مخروطًا أنه لم يصمد أمام عوامل الزمن، وعندما تهدم لم يستبدل به سقف آخر، انظر: Ορλάνδος, *Τυπολογική* εξέτασεις: 55-60; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 40; مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٤٨،٥٣ .

٤٨– اكتسب القديس سمعان العمودي (نحو ٣٨٩–٤٥٩م) شهرة عالمية امتدت من إسبانيا والغال حتى جزيرة العرب، فيروى أنه قضى نحو ٤٠ عامًا من حياته على عمود. وعندما توفي قامت مجموعة مؤلفة من ٦٠٠ جندي بحراسة جسده الذي نقل إلى أنطاكية، ووضع في كاتدرائيتها. للمزيد، انظر: المرجع السابق: ٤٨.

نصف دائرية؛ ويفسر مانجو ذلك بأن البازيليكا الشرقية فقط هي التي كانت تستخدم للطقوس الدينية. وهذا أمر واقعي حيث إن الهيكل ذا الثلاث حنايا للبازيليكا الشرقية هو هيكل للمبنى ككل، أي المثمن المركزي والأربع بازيليكات التي تشغل الأذرع الأربعة للشكل الصليبي.

النمط الرابع: وفي هذا النمط يوضع الشكل الصليبي داخل مساحة مربعة (أو مستطيلة) مكونًا في الأركان المحصورة بين أذرع الصليب والمربع الخارجي أربع مساحات ركنية متماثلة مربعة الشكل في الغالب. وتُغطى القبة المركزية للصليب بقبة عالية عن أسقف أذرع الصليب. ويمثل هذا التخطيط بداية تخطيط الصليب داخل مربع "Cross in Square" والذي سينتشر في عمارة الكنائس البيزنطية فيما بعد. تمثله كنيسة مدينة جرش بالأردن المعروفة بكنيسة الأنبياء والرسل والشهداء، وبنيت على نفقة سيدة اسمها مارينا Marina (شكل ٣٣، ٤٦٤-٤٦٥ م)، وكنيسة دير لاتومو بثيسالونيكى باليونان (شكل ٣٤-٣٥، النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي).

ومن العناصر الرئيسية التي تمثل اختلافًا بين تخطيطات البازيليكا في العمارة المسيحية المبكرة هي الشرفة "Gallery". وهي تمثل طابقًا ثانيًا يعلو الأروقة الجانبية للبازيليكا، وتشرف عبر سلسلة من الأعمدة والدعامات على الرواق الأوسط أو صحن الكنيسة (شكل ١٢٥). وميزت الشرفات الكنائس السورية واليونانية بصورة رئيسية.

وعن الاستخدام الوظيفي للشرفات؛ فيمثل استخدامها كمصلى للنساء الاستخدام الرئيسي أو الاستخدام الأكثر انتشارًا، كما أنها استخدمت أحيانًا كـ"Catechumenat" أي كمكان للموعوظين أي للذين يتلقون مبادئ الدين قبل المعمودية.[٤٩]

٤٩- المرجع السابق: ٤٣.

أجزاء البازيليكا[٥٠]

١– ساحة مُسَوَّرَة "En. Precinct, Enclosure; Gr. Ο Περίβολος"

حيث تقع البازيليكا داخل ساحة كبيرة مسْوَّرة تمثل حرمًا للبازيليكا، وهي سمة معمارية تميز المجموعات الكنسية في القرنين ٤–٥ م، في الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وأحيانًا تكون بها أروقة، مثل كنيسة القديس ذيمتريوس في فثيوتيذس ثيـڤس (شكل ٣٨).

٢– فناء "En. Atrium; Gr. To Αίθριο"

أتريوم هو الفناء، ويقال للفناء الداخلي في المنزل الروماني. وهو هنا فناء ذو مسقط مربع أو مستطيل يتقدم البازيليكا من الجهة الغربية (شكل ٣٩)، وقد يكون محاطًا برواق مغطى من جميع الجهات (القرن الرابع الميلادي)، وفي القرن الخامس الميلادي أصبحت فقط الجهة؛ حيث مدخل البازيليكا هي التي تحوي رواقًا أو سقيفة مغطاة لتمثل السقيفة الخارجية للبازيليكا "Narthex"، والسقف يكون مائلاً باتجاه الفناء لحماية المدخل من الشمس والمطر. والفناء بمثابة مكان للتجمع خارج الكنيسة الرئيسية للموعوظين وقت قداس المؤمنين، أو لمن ليس لهم الحق في دخول الكنيسة.

وفي بعض الحالات كان يوجد بالفناء دخلات نصف دائرية عرفت باسم إكسيدرا[٥١] "εξέδραι"، ومن المحتمل أنها كانت تستخدم في حفظ الملابس الكهنوتية الخاصة بالأسقف، أو كمكان حيث يوضع كرسي للأسقف الذي سيرأس أي طقوس أو مراسم قد تتم في الفناء (للموعوظين الذين لم يعمّدوا). وجدير بالذكر أن الإكسيذرا قد انتقلت لاحقًا في أطراف زوايا السقيفة الخارجية للبازيليكا. وقد حفظ نموذج نادر لمثل هذه الحنايا بوسط الجانب الغربي لفناء البازيليكا A فيليبوس باليونان (شكل ٤٠).

٥٠– W. Smith and S. Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities, Comprising the History, Institutions, and Antiquities of the Christian Church from the Time of the Apostles to the Age of Charlemagne*, vol. 1 (London, 1908): 365 f ; Ορλάνδος, *Η ξυλόστεγος παλαιοχριστιανική βασιλική*:p. 89-206; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: p.41-46.

٥١– أية حجرة تفتح بكامل اتساعها على مساحة أكبر منها سواء كانت مغطاة أم سماوية مكشوفة (أشبه بإيوان صغير أو حنية كبيرة).

كان يتوسط الفناء فسقية أو حوض ماء، حيث يغسل المؤمنون أيديهم وأرجلهم قبل دخولهم الكنيسة.

٣- كتلة المدخل المعمّدة "En. Propylaeum, Entrance; Gr. To Πρόπυλο"

يتقدم عادة مدخل الكنيسة من الفناء كتلة مدخل ترتكز على أعمدة. وفي بعض الحالات نجد في واجهة الفناء أبراجًا دفاعية؛ مثل كنيستا بازيليكا A في فثيوتيذس ثيـڤس (شكل ٤١)، وبازيليكا إبيذافروس (شكل ٤٢).

٤- رواق المدخل الغربي للكنيسة (سقيفة المدخل)

"En. Narthex, Portico; Gr. O Νάρθηκας"

رواق المدخل هو الرواق أو الدهليز المستعرض الذي يتقدم صحن البازيليكا الأوسط والبلاطات الجانبية المحيطة به من جهة المدخل (الجهة الغربية)، ويطلق عليه في هذه الحالة "En. Inner Narthex; Gr.Εσονάρθηκας"؛ أو يتقدم واجهة الكنيسة الخارجية من الناحية الغربية فيمثل رواقًا خارجيًّا أو سقيفة خارجية ويعرف باسم "En. Outer Narthex; Gr. Eξονάρθηκας"، وقد يكون رواق المدخل هو نفسه الرواق الذي يحيط بالفناء الخارجي ويتقدم البازيليكا من الجهة الغربية.

ويعكس تقسيم رواق المدخل غالبًا تقسيم الكنيسة من الداخل من حيث عدد الأروقة، ففي البازيليكا ذات الثلاثة أروقة يُقسم رواق المدخل إلى ثلاث مساحات بواسطة عقود ترتكز على أعمدة أو أكتاف بنائية مدمجة بالجدران، ويتصل رواق المدخل بصحن الكنيسة بمدخل ثلاثي الفتحات على نمطين؛ إما ثلاثة مداخل منفصلة، أو بائكة ثلاثية الفتحات أو العقود، حيث ترتكز على عمودين في الوسط وعلى أكتاف في الجدارين الجانبيين (أشكال ٤٣-٤٤)، ويتصل رواق المدخل بالبلاطات الجانبية بفتحة مدخل واحدة بكل بلاطة.

وفي حالة وجود شرفة (طابق علوي) أعلى البلاطات الجانبية بالبازيليكا، ترتكز الشرفة في الجزء الغربي أعلى رواق المدخل على عقود رواق المدخل.

ويأتي "Narthex" أيضًا بمعنى مزار عند المدخل الرئيسي للكنيسة في العصور الوسطى.

٥- غرفة الهبات بالكنيسة "En. Diaconicon, Sacristy; Gr. ToΔιακονικό"[٥٢]

غرفة ملحقة بالكنيسة في الفترة المبكرة استخدمت كغرفة للهبات (أي استقبال تبرعات المؤمنين). وكان موضعها في العمارة المسيحية المبكرة على يمين مدخل الكنيسة برواق المدخل (الجهة الجنوبية من رواق المدخل). وكان عبارة عن حجرة مستطيلة بها حنية.

وفي فترة متأخرة استخدمت هذه الغرفة كأرشيف، وكحجرة لمجلس الكنيسة، ولحفظ ملابس الكهنة، وكمكتبة لحفظ الأدوات المستعملة في الصلوات وهدايا المصلين.

في فترة لاحقة (في القرن السادس الميلادي) نقلت هذه الغرفة إلى الطرف الشرقي من البلاطة الجنوبية، وجاءت ضمن تكوين معماري متماثل يحيط بالهيكل عبارة عن حجرتين متماثلتين عرفتا بغرفتي الباستوفوريا "Pastophoria"؛ الجنوبية التي نحن بصددها تمثل الـ"Diaconicon"، والشمالية تسمى بروثيسيس "En. Prothesis; Gr. Πρόθεση" وتستعمل لتحضير القربان لقداس الشكر. وجدير بالذكر أن هذه الغرفة لا توجد في كنائس الغرب؛ حيث يقدم المؤمنون هباتهم وتبرعاتهم في الهيكل في بداية قدّاس المؤمنين.

غرفة الأدوات المقدسة (في المعبد الإغريقي) تعرف أيضًا بالـ "Diaconicon".

٦- غرفتا حفظ أدوات التحضير لطقوس صلاة الشكر[٥٣]

"En. Pastophoria; Gr.Τα, Παστοφόρια"

مصطلح Παστοφόρια مكون من جزأين: الأول "Παστάς" بمعنى «سرير العُرس» إشارة إلى رمزية اتحاد المؤمن في طقس صلاة الشكر مع المسيح، والثاني "φόριο" بمعنى حصن، وتعني هنا مكان حفظ؛ ومن ثم فيعني المصطلح كاملاً «مكان حفظ أدوات».

٥٢- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 549.

٥٣- W. Smith and S. Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities, Being a Continuation of the Dictionary of the Bible*, vol. 2 (Toronto, 1880): 1565.

وهما كما سبق الإشارة في تعريف غرفة الهبات تكوين معماري من غرفتين (غرفة الهبات Diaconicon، وغرفة التحضير للقربان Prothesis يكتنف الحنية من جهتيها الجنوبية والشمالية على الترتيب. حيث توجد الحنية الشرقية (الهيكل) داخل الشكل المستطيل للبازيليكا، مكونة غرفتين مستطيلتين محصورتين بين الحنية والمستطيل الخارجي للبازيليكا، يحيطان بالحنية من الجهتين الجنوبية والشمالية (أشكال ٤٥-٤٦). وانتشر هذا التخطيط في بازيليكات سوريا، وشمال إفريقيا، وداخل آسيا الصغرى، وجزر البحر المتوسط: قبرص، وكريت، والاثنتي عشرة جزيرة، وبعض الأماكن في البلقان.

٧- الشرفات[٥٤] مصلى النساء

"En. Gallery or Tribune; Gr. Τα Υπερώα ή Υυναικωνίτης"

الشرفة هي الطابق العلوي الذي يعلو البلاطات الجانبية في الكنيسة البازيليكية، ويتماثل في أبعاده مع البلاطات الجانبية التي يعلوها. وتنتشر بصورة رئيسية في اليونان، وفي سوريا وشمال إفريقيا. والنساء يحضرن الطقوس عادة ويتابعنها من الشرفة؛ ومن ثم فيعرَّف على أنه مصلى النساء.

والفصل بين النساء والرجال متبع منذ نشأة المسيحية متأثرًا بالطقوس داخل المجْمع اليهودي.

٨- الحنية[٥٥]الهيكل

"En. Apse, Sanctuary; Gr. Η Αψίδα ή η κόχη του ιερού βήματος"

تنتهي البازيليكا من جانبها الشرقي بحنية عادة نصف دائرية أو مستطيلة المسقط. وفي العمارة المسيحية المبكرة كان يوجد حنية واحدة؛ حيث يوجد هيكل واحد لأداء الطقوس الكنسية. ومن ثم فهو أكثر الأماكن قدسية بالكنيسة؛ ولا يجوز لغير ذوي الرتب الكهنوتية دخول الهيكل. ويسمى الهيكل قدس الأقداس والقبة المحتجبة وبيت الله. وفي مصر في الفترة المبكرة حتى نهاية القرن الرابع الميلادي كثير من القاعات أو الغرف حوّلت إلى كنائس أو مصلى كنسي بإضافة حنية جهة الشرق.

٥٤- Bauer, *A Greek-English Lexicon*: 842.

٥٥- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 133-134.

في الكنائس الشرقية كان يكتنف الحنية غرفتا الباستوفوريا "Pastophoria" من الجهتين الجنوبية والشمالية. وفي مصر في فترة متأخرة تم تحويل الغرفتين إلى حنيتين بهيكلين لتصبح الجهة الشرقية للكنيسة القبطية متفردة في احتوائها على ثلاثة هياكل تستخدم جميعها للطقوس الكنسية. ورغم اشتراك إيطاليا مع مصر في أن حنية الكنيسة بها تأخذ شكل حنية ثلاثية، فإنه في البازيليكا الإيطالية تكون الحنية الوسطى فقط هي التي تمثل الهيكل، ويكون فيها المذبح وتقام فيها الطقوس الكنسية.

في كنائس شمال إفريقيا قد تضاف حنية للبازيليكا في الجهة الغربية، حيث يكون عادة موقع قبر الشهيد (شكل٤٨).

العناصر المعمارية الطقسية

ارتبطت الحنية حيث الهيكل ببعض العناصر المعمارية والفنية التي تحمل الصفة الطقسية، وسنعرض لها باختصار للتعرف على أماكن وجودها وصفة أشكالها ووظائفها، وتتمثل في:

١- الحجاب[٥٦]

" En. Cancelli or Screen; Gr. Το Φράγμα του Πρεσβυτερίου"

يعرف الحجاب في اللاتينية بالمصطلحات التالية "Podium, Pectoralia, Meniana" وفي اليونانية "Κιγκλίδες، Δρύφακτα, Κάγγελοι، κάγκλλοι، κάγκελλα"، وأطلق على باب هذا الحجاب الموصل للهيكل البوابة المقدسة "άγια θύρια، καγκελοθύρια".

والحجاب أو الحاجز كما هو مستمد من اسمه لحجب وفصل الهيكل وما يحويه من عناصر طقسية عن صحن الكنيسة؛ أي أن وظيفة الحجاب في الكنيسة هي حجب الهيكل والمذبح وأعمال الطقوس السرية للقداس عن رواد الكنيسة من عموم المسيحيين الذين يتواجدون بصحن الكنيسة، حيث إن دخول الهيكل ورؤية الطقوس السرية للقداس هي أمور قاصرة على رجال الدين وذوي الرتب الكهنوتية.

٥٦- *Ibid.*: 263-264.

في كنائس القرن الرابع الميلادي كان الحجاب يأخذ شكل درابزين منخفض، ولذا أطلق عليه "Κιγκλίδες" ويكون في مركز هذا الدرابزين المنخفض باب أو مدخل (نهاية القرن الرابع الميلادي) يمثل المدخل الوحيد للهيكل وأطلق عليه «البوابة المقدسة». ارتفاع الدرابزين «الحجاب» هنا يمنع وينظم الحركة، لكنه لم يكن مرتفعًا بالقدر الذي يحجب الرؤية؛ لذا استخدمت ستائر أعلى هذا الدرابزين لعزل رؤية الهيكل وقت الطقوس السرية للقداس. ثم في فترة لاحقة – غالبًا القرن الخامس الميلادي – أصبح الحجاب يأخذ شكلاً مربعًا أو مستطيلاً على شكل حرف Π، ومنذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي أصبح الحجاب بعرض الكنيسة كلها حاجبًا الهيكل (أو الهياكل) وممتدًا في البلاطات الجانبية[٥٧].

ومع بدايات القرن الخامس الميلادي أصبح الهيكل والحجاب الذي يحجبه عن صحن الكنيسة مرتفعًا عن مستوى أرضية صحن الكنيسة والبلاطات الجانبية؛ حيث يقام على منصة أو درجة مرتفعة؛ ومنها جاء مصطلح البيما "Βήμα, Bema" ليعبر عن الجزء المرتفع من الكنيسة والمفصول عنها عبر حجاب، كما كان قاصرًا على رجال الدين.

الحجاب بداية كان يصنع من الخشب وأحيانًا من الحديد أو المعدن، ثم انتشر عمل الحجاب من الحجر والرخام وفي مناطق أخرى بالآجر، وفضلت الكنائس المصرية استخدام الحجاب الخشبي[٥٨] – مع وجود أحجبة من الآجر والحجر – فجاءت أحجبة الكنائس القبطية تحفًا فنية من الخشب المفرغ دقيق الصنعة وغالبًا مُطعم بالعاج والأبنوس، وغني بالزخارف النباتية والرموز المسيحية. وللأسف فإن الأحجبة الخشبية التي حفظت يعود أقدمها للقرن العاشر الميلادي، وإن كانت تمثل استمرارًا لتقليد منذ القرن الرابع الميلادي.

والأحجبة الحجرية والرخامية (أشكال ٤٩–٥٢) في الفترة المبكرة القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين كانت تتألف من دعامات صغيرة تحصر بينها حشوات رخامية منحوتة بأشكال زخرفية. كانت واجهات الدعامات تُزَيَّن بزخارف هندسية غالبًا، وتتوج الدعامات بشكل كرّي «رمانة». وزخرفت حشوات الأحجبة بموضوعات زخرفية منفذة بالحفر الغائر، وغلب

٥٧– Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 69-70.

٥٨– حبيب، كنائس القاهرة: ٤–٥ .

على الموضوعات الزخارف الهندسية البسيطة في القرن الرابع الميلادي والنصف الأول من القرن الخامس الميلادي، ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي أصبحت الموضوعات الزخرفية للحشوات مركبة وأكثر إتقانًا، تداخلت مع الزخارف الهندسية عناصر نباتية وحيوانية[٥٩].

وهناك فرق وظيفي ومعماري بين الحجاب "Cancelli or Screen" وبين حامل الأيقونات "Iconostasis"؛ وهو واضح في اللغات الأجنبية تمامًا، ولكن أحيانًا يحدث لبس في الكتابات العربية نتيجة موقعهما الواحد في الكنيسة ما أدى إلى دمجهما في كيان معماري واحد يحقق الغرضين الوظيفيَّيْن معًا.

فحامل الأيقونات "Iconostasis"[٦٠] لم يكن الغرض منه حجب الحرم أو الهيكل عن الصحن، بل كان الغرض الرئيسي منه حمل مجموعة من الأيقونات التي يجب أن يراها المصلون وهم بالكنيسة، ولذا كان أفضل مكان هو مكان توجه المسيحيين المصلين أي تجاه الشرق ولذا اختيرت واجهة الهيكل؛ حيث الحجاب - الذي استمر استخدامه عنصرًا ثابتًا في الكنائس الشرقية دون الغربية - كمكان مثالي لوضع الأيقونات. كما أن التطور التاريخي لكلٍّ من العنصرين متمايز؛ ولذا عند الحديث عن العمارة المسيحية المبكرة لا حاجة لنا للإسهاب في الحديث عن حامل الأيقونات والذي ظهر غالبًا بعد القرن الثامن الميلادي.

٢- صدْر صحن الكنيسة "En. Soleas or Screen; Gr. Σολέα"

يمكن التعبير عن مصطلح Solea في العربية بصدر صحن الكنيسة؛ وهو للدلالة على مكان بالكنيسة وليس أثاث كنسي. نجد في المصادر اليونانية[٦١] صيغًا عديدة للدلالة على هذا العنصر منها "σολέα،σολέας ، σολεία".

٥٩- *Ibid.*: 70.

٦٠- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 807-809.

٦١- *Ibid.*, vol. 2: 1919.

ومصطلح Solea مرتبط أكثر بالكنيسة الشرقية، ودلالته المعمارية مكان ضيق أو متسع – بحسب مساحة الهيكل والكنيسة – مستطيل مرتفع يتقدم مدخل حجاب الهيكل. وقد يحاط هذا المكان بدرابزين ويستخدم لوقوف الشمامسة، أو المرتلين، أو أصحاب الرتب والمقامات الرفيعة أثناء إقامة الطقوس الدينية. وفي هذا المكان يوجد كرسي الإمبراطور والأسقف. وأقرب إشارة للمعنى(٦٢) تتصل بمصطلح "Solium" وتعني العرش أو الكرسي العالي، وهو الأقرب للدلالة الوظيفية لهذا العنصر المعماري. وفي الكنائس الغربية يُستخدم كمكان للمرتلين "Schola cantorum".

٣- درج الكهنوت(٦٣) "En. Synthronum; Gr. To Σύνθρονο"

درج رجال الدين في حنية الهيكل في الكنيسة – وهو يمثل نصف دائرة تدور حول المذبح تجاه الشرق – ويجلس عليه رجال الكهنوت أثناء تأدية قداس الشكر على المذبح، ويكون كرسي الأسقف أو الكرسي الرئيسي في مركز الدرج خلف المذبح من جهة الشرق، حيث يمثل العنصر المعماري الأخير في الحنية جهة الشرق. وعادة يأخذ شكل درجات تاركًا بينه وبين المذبح ممرًّا لتسهيل حركة الشمامسة ورجال الكهنوت أثناء القداس (شكل ٥٣).

وفي بعض الحالات نجد أن الدرج يشغل الحنية بالجهة الشرقية للمذبح، وهناك مصطبتان تحيطان بالمذبح من الجهتين الجنوبية والشمالية، وتتركان مع درج الحنية ممرًّا يفصلهما عن المذبح لسهولة الحركة، يأخذ شكلاً نصف دائري أو حرف U تكون فتحته جهة الغرب (شكل ٥٢،٥٤). وفي هذه الحالات يقتصر استخدام الدرج داخل الحنية ككرسي للأسقف، ويجلس الشمامسة على المصطبتين حول المذبح أثناء القداس.

وكرسي الأسقف كما سبق القول يكون بمركز الدرج بالحنية أقصى الشرق من المذبح، وقد

٦٢- الكلمة اللاتينية Solea تعني لغويًا أيضًا خفًا رومانيًا من خشب أو جلد يثبت في القدم بأشرطة.
حلمي عزيز، ومحمد غيطاس، **قاموس المصطلحات الأثرية والفنية إنجليزي – فرنسي – عربي**، مراجعة محمد عبد الستار عثمان، تدقيق وجدي رزق غالي (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ١٩٩٣): ١٠٧.

٦٣- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 2 *Παλαιοχριστιανική*: 71: 1948; Γκιολές.

يكون ثابتًا أو متحركًا، ويصنع من المرمر أو المعدن، أو الخشب، وأيضًا من المواد النفيسة. ويمثل كرسي الأسقف ماكسيميانوس برافينا (منتصف القرن السادس الميلادي) نموذجًا رائعًا لكرسي الأسقف وتحفة فنية؛ فهو من الخشب ذي حشوات زخرفية محفورة ومطعمة بالعاج، وتشمل الزخارف رسوم قديسين داخل أشكال محاريب، وزخارف نباتية، وحيوانية، وكتابات على درجة عالية من القيمة الجمالية والفنية والتاريخية، وهو محفوظ حاليًا بالمتحف الوطني برافينا (شكل ٥٥).

ونجد في شمال سوريا في بازيليكا A بالرصافة (شكل رقم ٥٦) نموذجًا لتخطيط غير تقليدي؛ حيث نجد درج رجال الدين خارج الحنية، فنجده في صحن الكنيسة ضمن تكوين معماري يمثل في مجمله نمطًا غير تقليدي. وهو عبارة عن منصة مستطيلة تنتهي بحنية نصف دائرية، حيث يوجد الدرج. وفي مركز المنصة مربعة المسقط توجد ظلّة ترتكز على ٤ أعمدة ومغطاة بشكل هرمي. وهذه الظلة استخدمت كمنجلية أو أمبون حيث يقف فيها الكاهن أو الشماس ليلقي الموعظة أو يقرأ الكتاب المقدس، وقد تكون للاستخدام أثناء الاحتفالات الدينية من قبل المرتلين؛ حيث يقف داخلها ويحيط بالمنصة درابزين رخامي منخفض يتكون من أعمدة تربط بينها حشوات رخامية.

٤- المذبح "En. Altar; Gr. Η Αγία Τράπεζα" [٦٤]

المذبح من العناصر الثابتة المعمارية في الكنيسة؛ وهو عبارة عن طاولة أو سطح مرتفع تقام عليه طقوس القداس "Το μυστήριο της Θείας Ευχαριστίας". ويعرف المذبح في اليونانية بأسماء عديدة أشهرها: "Τράπεζα" أي الطاولة «ترابيزة المأخوذة عن الكلمة اليونانية ذاتها»؛ "Τράπεζα Κυρίου" طاولة الرب؛ "Αγία Τράπεζα" الطاولة المقدسة؛ "Μυστική Τράπεζα" ؛ Θυσιαστήριον مكان الأضحية أو الذبيحة، والأقباط يطلقون عليه Ιλαστήριον، واستخدموا أيضًا الكلمة المصرية القديمة Pimanerschoouschi، وهناك كلمة "Βωμός" وتستخدم في الكتابات المسيحية

٦٤- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 60-69; Bauer, *A Greek-English Lexicon*: 824; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 71-73.

للدلالة على مذبح وثني، ولفظ Ara كمرادف أو ترجمة لـ"Βωμός"، ومصطلح Mensa Domini or Mensa Dominica يرد في كتابات الآباء الغربيين، والأكثر شيوعًا في كتاباتهم مصطلح Altare، وعن الأخيرة اشتقت الكلمات المرادفة للمذبح في غالبية اللغات الأوروبية والسلافية.

ويتكون المذبح ككيان معماري من الدرج أو المنصة، حيث يثبت أعلاها متوسطًا هيكل الكنيسة، المذبح نفسه سواء كان طاولة مشتملة على أرجل أو أعمدة الطاولة وسطحها المستطيل الذي يطلق عليه "Mensa" (شكل ٥٧)، أو على شكل الصندوق المغلق أو تركيبة – المدفن؛ حيث يتكون من حشوات جانبية وسطح المذبح (شكل ٥٨). وفي الفترة المبكرة أحيانًا كان يعلو المذبح مظلة "Ciborium or Canopy" ترتكز على أربعة أعمدة (شكل ٥٩).

والمذبح في الفترة المسيحية المبكرة حتى النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي تقريبًا كان عبارة عن طاولة خشبية ومتحركة. ثم أصبح المذبح عنصرًا معماريًّا ثابتًا عبارة عن بناء مربع أو مستطيل الشكل يتوسط هيكل الكنيسة يكون بناؤه من اللبِن أو الآجر أو الحجر؛ ومنذ القرن الرابع الميلادي أصبحت تُستخدم في صناعة المذبح المعادن الثمينة، والعاج، والذهب والفضة. فقد أهدى الإمبراطور قنسطنطين لبازيليكا كنيسة القيامة بالقدس مذبحًا بالكامل من الذهب والفضة، والمذبح في بازيليكا لاترانو بروما من الفضة. وأهدت الإمبراطورة بولخريا كنيسة الحكمة المقدسة بالقنسطنطينية مذبحًا من الذهب والأحجار الكريمة.

في الكنائس الشرقية[٦٥] يتم بناء المذبح عادة وسط الهيكل ليتمكن كلٌّ من الكاهن والشماس من التحرك بسهولة حوله. وفي كنائس البازيليكا ذي المجاز القاطع وذات التخطيط الصليبي يوضع المذبح في المربع المركزي؛ حيث مركز تقاطع أذرع الصليب.

وغالبًا يوجد مذبح واحد بكل كنيسة تقام عليه الطقوس؛ وتتميز الكنائس الشرقية عمومًا بتعدد المذابح. واختصت الكنيسة القبطية[٦٦] بتعدد المذابح التي يتم عليها الطقوس، فنجد في الكنيسة المصرية – في فترة متقدمة في القرن العاشر الميلادي على أقل تقدير – ثلاثة هياكل؛ بحيث يتوسط كل هيكل مذبحًا.

٦٥– أشرف محمد السيد البخشونجي، **كنائس ماوي الأثرية (دراسة أثرية معمارية)** (القاهرة: دار نهضة الشرق، ١٩٩٦): ٢٣٧.

٦٦– شيحة، **دراسات في العمارة**: ٦٥– ٦٦.

وأحيانًا كان يعلو المذبح مظلة "Gr. Κιβώριον; En. Ciborium; It. Baldachino" ترتكز على أربعة أعمدة؛ وقد تكون الأعمدة حتى الأرض، أو تكون قصيرة على المذبح نفسه فيطلق على هذا النوع من المظلة Peristeruim. ومثل هذا الشكل لم يرد قبل القرن الخامس الميلادي؛ فنراه في فسيفساء كنيسة القديس جورج في ثيسالونيكي (القرن الخامس الميلادي)، وتمثل مظلة مذبح كنيسة القديس أبوليناري في رافينا أقدم نموذج مؤرخ باقٍ؛ حيث عليه نقش يذكر تاريخ بين ٨٠٦-٨١٠ م. وجدير بالذكر أن كنائس مصر القديمة يوجد بها مظلة خشبية ترتكز على أربعة أعمدة من الرخام أو الخشب.

وهناك نمطان رئيسيان من المذابح:

النمط الأول: ينتشر في الكنائس البازيليكية في مصر واليونان وبلاد العراق والشام، والمذبح هنا عبارة عن بناء مصمت مكعب أو مستطيل الشكل؛ يتألف من لوح رخامي مبني على قاعدة حجرية أو مرتكز على حشوات رخامية في شكل تركيبة رخامية "Tomb-form". وفي هذا النوع من المذبح أحيانًا يتم عمل تجويف داخلي تكون فتحته غالبًا في الحشوة الرخامية جهة الشرق وتوضع فيه الآثار المقدسة للقديسين.

النمط الثاني: يمثل المذبح الحرّ وهو الأصل في شكل المذابح على شكل طاولة؛ وهو عبارة عن لوح رخامي يمثل سطح المذبح "Mensa" يستند على أعمدة رخامية (أرجل)، تتعدد لتبدأ من عمود واحد في المنتصف (مثل مذبح كنيسة آيريول "Auriol" بفرنسا فى القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين، شكل ٥٧)، والأكثر انتشارًا أربعة أعمدة في الأركان، وتبعًا لمساحة المذبح تزداد الأعمدة فهناك خمسة أعمدة (واحد في المنتصف وأربعة في الأركان، ومن أمثلة هذا النوع مذبح بمتحف مارسيليا مؤرخ بالقرن الخامس الميلادي)، وتسعة أعمدة (مثل مذبح كنيسة بازيليكا B بنيكوبوليس، شكل ٦٠). وهذا النوع من المذابح انتشر في بداية القرن الرابع الميلادي في الشرق والغرب على السواء، ثم أصبح سائدًا في الشرق ونادرًا ما يوجد في الكنائس الغربية.

وارتبط المذبح في الكنائس الغربية بشكل جديد من التكريس للشهداء والقديسين، حيث صار تقليدًا في روما (والمدرسة المعمارية التابعة لها) منذ القرن الرابع الميلادي بإنشاء قبو صغير أي سرداب وأطلق عليه "Confessio" أسفل الدرج تحت موقع المذبح. وهذا القبو كان في الأصل يمثل فقط مدفنًا أو مرقدًا يسع جثمانًا واحدًا فقط، ثم تطور واتسع ليمثل قبوًا يتصل بالكنيسة عبر نافذة أو مصبعات معدنية أسفل المذبح، ليتيح رؤية التابوت؛ حيث يوجد جثمان القديس (شكل ٦١).

وتقليد وضع المذبح فوق رفات أحد الشهداء أو القديسين ربما يكون نابعًا من الربط بين تضحية هؤلاء الشهداء الذين أعلنوا إيمانهم وعانوا في سبيل ذلك وبين رمزية التضحية في قداس الشكر. وتأصل هذا التقليد في الكنائس الغربية حتى صار قاعدة؛ فكان كل مذبح يبنى يجب أن يكون تحته رفات أو أثر مقدس من الشهداء والقديسين، ويجب أن يكون من بينهم القديس الذي تكرس على اسمه الكنيسة.

والمذبح يغطى بثلاثة أغطية: الأول من الكتان أو القطن ويصل إلى الأرضية، والثاني من الحرير الأحمر وعليه صلبان مطرزة في كل جانب ويصل إلى الأرضية، والثالث من الكتان الأبيض وهو يغطي سطح المذبح فقط[٦٧].

ويرتبط بالمذبح عنصر آخر يطلق عيه الثالاسا "En. Piscine; Gr. H Θάλασσα[٦٨] ή, Χωνευτήριο"، وهو يعني الحوض الصغير (وقد يكون تجويفًا صغيرًا ضحلاً) إلى يمين أو جهة الشرق أو أسفل المذبح تتجمع فيه السوائل مثل الماء. وهذا الماء يعد ماءً مقدسًا؛ ويغسل به الكائن المذبح والأواني الطقسية كما يغسل فيه الكاهن يديه قبل أن يشرع في طقس الإفخاريستيا «الشكر». وأطلق على هذه الأحواض الصغيرة "Θάλασσες"، والمعنى الحرفي لـΘάλασσα هو البحر، وهو هنا يعني النبع. وفي الفترة المتأخرة عُرف باسم Χωνευτήριο ومعناه قدر وبوتقة تتجمع فيه المياه المقدسة.

٦٧- البخشونجي، **كنائس ماوي**: ٢٣٧.

٦٨- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 2: 1643.

٥- مقصورة الاعتراف[٦٩] «السرداب»

"En. Confessio; Gr. Η Κρύπτη ή κατάβαση"

في الأصل تعني مكان دفن القديس أو الشهيد الذي شهد شهادة حق للمسيح عليه السلام. ومن هنا جاء تقليد (في الكنائس الغربية بصفة خاصة) أن يكون موضع المذبح أعلى هذا المدفن أو القبر. وبتطور الأمر أصبحت تبنى البازيليكا أو المصلى على هذه البقعة المقدسة. ومن هنا عرف هذا العنصر المعماري (وأيضًا المذبح أعلاه) في هذا النوع من الكنائس باسم "κατάβαση" أي المنحدر. وهذا النوع من الكنائس مرتبط بالكنيسة الغربية، ومعظم نماذجه في روما، وارتبط بتقديس آثار القديسين والشهداء.

ومن الكلمات المرادفة الدالة على هذا العنصر المعماري الطقسي Memoriae Martyrum and Martyria concilia martyrum وكلها تفيد معنى المشهد (قبر الشهيد أو مدفن الشهيد) أو المشهد التذكاري.

ومعماريًّا هو عبارة عن قبو أو مدفن أسفل حنية الكنيسة، حيث يوضع تابوت جثمان أو رفات أو الآثار المقدسة لأحد القديسين أو الشهداء. ويكون التابوت أسفل المذبح، ويتوصل إليه عبر سلم هابط من عدة درجات من النهاية الشرقية لصحن الكنيسة (شكل ٦١).

٦٩- *Ibid*, vol. 1: 422-423; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 73.
عزيز، غيطاس، **قاموس المصطلحات الأثرية**: ٢٦.

٦- موضع الآثار المقدسة «التكريس»[٧٠]

"En. Consecration; Gr. Η Κατάθεση ή εγκαίνιο"

في الشرق نجد أن تكريس الكنائس لا يتم بعمل سرداب أو مقصورة متصلة بسطح الكنيسة مثل Confessio في الكنائس الغربية؛ ويستعاض عن ذلك بوضع الآثار المقدسة للشهيد أو القديس الذي تكرس الكنيسة على اسمه داخل صندوق أو آنية، وتوضع داخل حفرة أو خندق صغير أسفل موقع المذبح مباشرة (شكل ٦٢). وتأخذ هذه الحفرة شكلاً مستطيلاً أو شكلاً صليبيًّا؛ وتحاط ببلاطات رخامية لحمايتها.

٧- الأمـﭬون[٧١] أو الأمبون «المنبر الكنسي»

(En. Ambo or Pulpit; Gr. Ο Άμβωνας)

مصطلح "Άμβωνας" اسم يوناني من الفعل "αναβαίνω" بمعنى يصعد، حيث يصعد الكاهن أو القس لمكان عالٍ داخل الكنيسة لإلقاء الموعظة، وقيل مصدره لفظ «الإنبل»[٧٢] من اللغة الأمهرية. وهذا العنصر المعماري كان في الفترة المبكرة ومع بدايات القرن الرابع الميلادي بسيطًا؛ فقد كان عبارة عن سلم غالبًا من ثلاث درجات ينتهي بجلسة أو منصة؛ حيث يقف عليها الواعظ ليلقي الموعظة[٧٣] (أو يقرأ الشماس الكتاب المقدس) ليكون صوته مسموعًا ويراه جميع الحاضرين وذلك حين أصبحت التجمعات المسيحية كبيرة العدد وأصبحت الصلاة والعبادة والتجمع داخل الكنائس العامة. وفي مصر تمثل نماذج كيليكيا وعين الجديدة

٧٠- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 427-433; Ορλάνδος, *Η ξυλόστεγος παλαιοχριστιανική βασιλικ* 72-73; Ορλάνδος, *Η ξυλόστεγος παλαιοχριστιανική βασιλική*:*ή*: 466-467; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανικ 76-78; Dictionary of ChristianAntiquities*, vol. 1: 538 f; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: *ή*: 74.

٧١- Smith and Cheetham, eds. "East and West Syrian Tradition", *Reallexikon*.420-550 :(1968) *fir Antike und Christentum* 1 (1950): 363-365; R. Taft A. M. Schneider, "Ambon Some Notes on the Bema" in the *Orientalia Christiana Periodica* 34.

٧٢- شيحة، **دراسات في العمارة**: ٦٦.

٧٣- Jacques Jarry, "L’ambon dans la liturgie primitive de l’église", *Syria*, T. 40, Fasc. 1/2 (1963): 147-162.

نماذج مبكرة لهذا العنصر المعماري (شكل ٨٤).

ومع تطور شكل وتخطيط الأمبون أصبح يمثل منصة أو جلسة عالية يصعد إليها الواعظ عن طريق سلم واحد أو سلم بطرفين. وقد وجد الأمبون ذو الدرج المستقيم الواحد الذي ينتهي بالمنصة أو جلسة الواعظ في القرن الرابع الميلادي واستمر في القرن الخامس الميلادي، والنماذج التي حفظت لهذا النوع قليلة. ويكون الدرج جانبيًّا بحيث يقود للجلسة من الجانب أو من الخلف (الجهة الشرقية، حيث يتوجه الواعظ تجاه الغرب حيث جمع الحاضرين)، ومن ثم يكون الواعظ في مواجهة جماعة المؤمنين مباشرة، وفي فترات متأخرة (البيزنطي المتأخر، بتأثير من العمارة الإسلامية، أصبح درج المنبر داخل سمك الجدران؛ بحيث تكون المنصة فقط هي الظاهرة) وذلك له تأثير أفضل في التواصل بين الواعظ وجموع الحاضرين.

ثم تطور الأمبون فصار بسلم بطرفين؛

النمط الأول: يأخذ طرفا السلم مسقطًا به استدارة على شكل قوس، وأصبح الأمبون مع هذا التطور أكثر مهابة وتأثيرًا. وإضافة سلم بطرفين لم يغيّر من شكل النمط حيث الوصول والدخول لجلسة الواعظ ظل من جهة الشرق. وحفظ ثلاثة أمبونس (جمع أمبون) اثنان مؤرخان بالقرن الخامس الميلادي، والثالث أوائل القرن السادس الميلادي وهم على التريب: أمبون بازيليكا فثيوتيذس ثيفس، بازيلكيا القديس جورج بثيسالونيكى[٧٤] والمحفوظ حاليًّا بالمتحف الأثري بأسطنبول (شكل ٦٣)، وبازيليكا فيليبوس[٧٥]. وكان يعلو الجلسة كما في المثالين الأولين مظلة ترتكز على أربعة أعمدة تستند على زوايا الجلسة المربعة أو المستطيلة، ومغطاة بقمة مخروطية (شكل ٦٤).

٧٤- Γ. Σωτηρίου, "Ο Άμβων τηε Θεσσαλνίκης", *Επετηρίς Εταιρείας Βυζαντινών Σπουδών* 10 (1932) 418-424.

٧٥- Ε. Κουρκουτίδου-Νικολλαίδου, Οι δύο Αμβωνες της βασιλικής του Μουσείου στους Φιλίππους, Αφιέρωμα στη μνήμη Στ. Πελεκανίδη (Θεσσαλονίκη, 1983): 197-212.

النمط الثاني: (لهذا النوع أي الأمبون ذي سلم بطرفين)، يختلف في أن طرفي السلم فيه ذوا مسقط مستقيم. وقد ظهر هذا النمط في القرن الخامس الميلادي، وانتشر بشكل كبير في القرن السادس الميلادي، وحفظت منه أمثلة عديدة (شكل ٦٥)، وفي بعض الأحيان نجد جلسة الواعظ فيه يغطيها مظلة.

موقع الأمبون غالبًا في الصحن الأوسط للكنيسة مما يلي حجاب الهيكل، وقد يوضع في منتصف صحن الكنيسة أو في أحد طرفيه؛ ويراعى في موقعه أن يحقق أفضل مجال رؤية وتأثير سمعي لجموع الحاضرين.

وتصنع المنابر عادة من نفس مادة البناء الرئيسية المستخدمة في الكنيسة؛ فنجدها من الطوب اللبن (عين الجديدة بواحة الداخلة بمصر)، والحجر، والرخام. وقد شاعت الحجرية منها وذوات الحشوات الرخامية. وقد يكون قطعة واحدة مبنية أو مكونًا من أجزاء وحشوات. ونادرًا ما كان يستخدم مواد نفيسة، كما في حالة أمبون جستنيان بكنيسة آيا صوفيا بالقنسطنطينية.

أشهر البازيليكات المسيحية المبكرة

يمكن أن نبدأ نماذج البازيليكا المسيحية المبكرة بوصف لكاتدرائية صور[٧٦] يقدمه لنا المؤرخ يوسيبيوس، الكاتدرائية بنيت في السنوات ٣١٤-٣١٧ م، ويفيد وصف يوسيبيوس أن الكاتدرائية كانت بازيليكا يتقدمها فناء سماوي. الفناء محاط بأربعة أروقة ويتوسطه فسقية ماء، ويدخل إلى الفناء بواسطة سقيفة تذكارية معمّدة، والبناء كله محاط بسور. الرواق الغربي بالفناء يمثل الرواق الخارجي للبازيليكا، وعن طريق ثلاثة مداخل بهذا الرواق الأخير يتم الدخول إلى البازيليكا. البازيليكا مقسمة الى رواق أوسط يحيط به بلاطتان جانبيتان واحدة في كل جهة، الجنوبية والشمالية، وتنتهي بحنية تجاه الشرق، الرواق الأوسط أكثر ارتفاعًا مكوّنا فرق منسوب مع أسقف البلاطات الجانبية وهو مشغول بنوافذ لإضاءة داخل الكنيسة، وهي مسقوفة بالخشب. مع وجود درج رجال الدين، والهيكل مفصول عن الرواق الأوسط.

وإذا كان وصف يوسيبيوس يعطينا فكرة عن نموذج البازيليكا في الشرق والذي كان تحت حكم ليسينيوس في هذا الوقت وليس قنسطنطين؛ فتمثل بازيليكا كنيسة القديس يوحنا لاتيران "St. John Lateran" في روما والتي بنيت سنة ٣١٣ م نموذجًا للبازيليكا المسيحية في الغرب في عصر قنسطنطين.

بازيليكا لاتيران[٧٧] (نحو سنة ٣١٣م، أشكال ١٦-١٨)

كنيسة القديس يوحنا اللاتيراني وتعرف الآن بكنيسة القديس جيوفاني، وهي تمثل كاتدرائية حيث كانت مقر أسقفية روما لقرون عديدة، كما عقد بها كثير من المجامع الكنسية في العصور الوسطى عرفت بالمجامع اللاتيرانية. الكنيسة بنيت سنة ٣١٣ م، وجددت ورممت مرات عديدة خلال تاريخها الطويل، كُشف عن التخطيط الأصلي لبناء قنسطنطين في حفائر قام بها جوسي، وكرتهيمر وكوربت "Josi, Krautheimer and Corbett" ويذكر كرتهيمر أن الأساسات

٧٦- مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٣٨؛ Cutts, *History of Early Christian*: 45; Krautheimer, *Early Christian:* 45.

٧٧- R. Krautheimer, "The Constantinian Basilica", *Dumbarton Oaks Papers* 21 (1967): 119-122; Charles B. McClendon, "The History of the Site of St. Peter’s Basilica, Rome", *Perspecta 25* (1989): 57-58, figs.: 60-61; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 81-82.

الباقية والجدران والصور الأرشيفية والوصف في الكتابات التاريخية توضح صورة واضحة لبناء قنسطنطين. وبناء قنسطنطين عبارة عن بازيليكا ذي مسقط مستطيل (٧٥ × ٥٥ مترًا بدون الحنية، نحو ٩٥ مترًا طولاً شاملاً الحنية) ذي محور طولي يتجه شرق - غرب، ويتكون من صحن أوسط (رواق) وأربع بلاطات جانبية، اثنتان بكل جانب، ويفصل بين الرواق الأوسط والبلاطات الجانبية بائكتان (صفّان من الأعمدة)؛ كل بائكة من ١٥ عمودًا رخاميًّا ضخمًا، ويرتكز على الأعمدة عتب أفقي. ويفصل بين البلاطتين الجانبية في كل جهة بائكة منخفضة من ٢٢ عمودًا من الرخام الأخضر على قواعد مرتفعة. وهناك نوافذ كبيرة بالجدران لإضاءة البلاطات الخارجية (الطرفية أو البعيدة من الرواق الأوسط)، والبلاطات الداخلية والرواق الأوسط عن طريق النوافذ في فرق المنسوب "Clerestory" في سقف الرواق الأوسط.

يقطع البلاطتين الطرفيتين مجاز قاطع أضيف في فترة لاحقة، بينما تستمر البلاطتان الداخليتان حتى بداية الحنية. الحنية هنا جهة الغرب وفيها كرسي الأسقف وكراسي رجال الدين. والهيكل في الجهة الغربية من صحن الكنيسة تجاه الحنية، ويفصله عن صحن الكنيسة حجاب.

تقنية البناء تمثل استمرارًا للتقاليد الرومانية المحلية. الأقسام السفلية من جدران الأساسات مبنية من كتل كبيرة من الحجر والرخام بسمك ١,٧٠ متر، وبعمق ١٠ أمتار وحتى أسفل الأساسات الأقدم والتي تخص ثكنات عسكرية لجيوش الإمبراطور ماكسيموس. والأقسام العليا من الحجر والآجر. وبناء الجدران بناء سميك من الآجر[٧٨].

٧٨- Krautheimer, *Early Christian*: 48.

بازيليكا القديس بطرس[٧٩] بروما «نحو ٣١٩ – ٣٢٩م، أشكال ١٩–٢٣»

بنيت بازيليكا القديس بطرس بروما فوق موقع ضريح القديس بطرس مؤسس الكنيسة في روما، وتحتوي المشهد التذكاري أعلى الضريح. بدأ بناء البازيليكا في عهد الإمبراطور قنسطنطين نحو ٣١٩–٣٢٢م، وتم الانتهاء من بنائها تقريبًا سنة ٣٢٩م. وعند البناء تم تسوية الأرض على مستوى أرضية ضريح القديس بطرس التذكاري، والمقابر والأضرحة التي كانت محيطة بضريح القديس بطرس تم طمرها وأزيلت قممها. وترك فقط ضريح القديس بطرس بالنهاية الغربية على ربوة الفاتيكان؛ حيث أقيمت البازيليكا؛ ولذا فإن البازيليكا موجهة جهة الغرب لا الشرق.

وقد جمعت بازيليكا القديس بطرس ثلاثة أغراض وظيفية: ففضلاً عن كونها كنيسة تقام فيها الطقوس، فهي كنيسة شهيد أنشئت لتحافظ على وتخلد ضريح القديس بطرس، واستخدمت كبازيليكا جنائزية أو كجبانة مغطاة، دفن فيها من أحب أن يدفن بجوار ضريح القديس بطرس، كصالة جنائزية للوجبات الجنائزية الجماعية "Banquets" ؛ وتم الكشف في القرن السادس عشر الميلادي عن مقابر أسفل أرضيتها الأصلية، وألحق بها أضرحة تذكارية فخمة في نهاية القرن الرابع الميلادي، مثل ضريح "Anicii" ملحق بالحنية، ومقبرة إمبراطورية بنيت نحو سنة ٤٠٠ م (لأسرة ثيودوسيوس الأول) في مواجهة النهاية الجنوبية للمجاز القاطع بمحاذاة الجدران الخارجية. والبازيليكا بهذه الاستخدامات تمثل نموذجًا استثنائيًا. ولذا جاءت مساحة البازيليكا ضخمة لتتفق وهذه الأغراض المتعددة والتي يترتب عليها زيارة وحج أعداد كبيرة إليها.

يتقدم البازيليكا في الجهة الشرقية فناء كبير. ومن سقيفة بالجهة الغربية للفناء تصل لداخل البازيليكا. وتمثل البازيليكا بناءً ضخمًا ذا مجاز قاطع، أبعادها من الداخل ١١٩ مترًا طولًا × ٦٤مترًا عرضًا، طول الصحن الأوسط ٩٠ مترًا، وتتكون البازيليكا من رواق أوسط متسع «صحن الكنيسة» يحيط به بلاطتان جانبيتان من كل جهة، سقف صحن الكنيسة أكثر اتساعًا وارتفاعًا من البلاطات الجانبية. وسقف الرواق الأوسط مرتفع عن أسقف البلاطات الجانبية مكوِّنًا فرق المنسوب والذي

٧٩– Krautheimer, "The Constantinian Basilica" 131-133; Krautheimer, *Early Christian*: 54-58; Turpin C. Bannister, "The Constantinian Basilica of Saint Peter at Rome", *Journal of the Society of Architectural Historians* 27, no. 1 (Mar 1968): 3-32; McClendon, *The History*: 32-65; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 82-83.

يتخلله صف من النوافذ بطول الرواق الأوسط لإضاءة البازيليكا من الداخل. ويعترض صحن الكنيسة والبلاطة الجانبية جهة الحنية مجاز قاطع متسع، ويبرز عن الجدران الجانبية الطولية للبازيليكا، وتبرز حنية كبيرة نصف مستديرة المسقط تتوسط الجدار الغربي للمجاز القاطع. ويفصل بين المجاز القاطع وصحن الكنيسة عقد كبير أشبه بقوس النصر على نفس محور الحنية، وبين المجاز القاطع والبلاطات الجانبية بائكة عرضية تتكون من أعمدة رخامية تحمل عتبًا مستقيمًا.

بازيليكا مدينة الشلف[٨٠] (الأصنام، أورليانفيل، أشكال ٤٧-٤٨)

أنشئت نحو سنة ٣٢٤ م وكانت تمثل كاتدرائية المدينة. مساحتها نسبيًّا صغيرة ٢٦ × ١٦ مترًا. وتمثل بازيليكا مستطيلة المسقط؛ مقسمة من الداخل بواسطة أربع بوائك من دعامات مربعة إلى رواق أوسط متسع (صحن الكنيسة) يحيط بلاطتان جانبيتان من كل جانب به. الرواق الأوسط أكثر ارتفاعًا مكوِّنًا فرق المنسوب "Clerestory" به نوافذ تضيء داخل الكنيسة. الفسيفساء تغطي الأرضيات، والحنية ترتفع على سرداب يرتفع مستواه أعلى مستوى أرضية صحن الكنيسة. والحنية تمثل امتدادًا للرواق الأوسط، ومسقطها نصف مستدير من الداخل ولكن ضمن الحد الخارجي لمستطيل البازيليكا دون بروز عن الجدار الشرقي[٨١].

أضيف للبازيليكا حنية ثانية جهة الغرب في الفترة بين ٤٠٠ - ٤٧٥ م، كما من المحتمل أن الشرفات أعلى البلاطات الجانبية أضيفت في القرن السادس الميلادي.

٨٠- مدينة الشلف في الجزائر في شمال إفريقيا. دخل الرومان إلى وادي الشلف في القرن الأول الميلادي، وأسسوا مدينة كاستيليوم تانجيتانيوم وهي مدينة عسكرية. وفي سنة ٣٢٤ م تحت حكم قسطنطين تم بناء كنيسة كبيرة كانت تحوي بداخلها بقايا الأسقف «سان ريبارتوس». ثم بعد ذلك جاءت مرحلة الفتوحات الإسلامية وعرفت المدينة باسم مدينة الأصنام، وأخذت هذه التسمية من مخلفات الوندال. وبعد سقوط الحكم العثماني سنة ١٨٣٠ م على يد المستعمر الفرنسي تم استبدال اسم الأصنام بأورليانفيل «Orleansville»، وبعد سقوط الحكومة الفرنسية تم استرجاع تسميتها الأخيرة الأصنام، وعلى إثر زلزال ١٠ أكتوبر سنة ١٩٨٠م تم استبدال اسم الأصنام بالشلف واحتفظت بالاسم حتى الآن.

٨١- Smith and Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 366; Krautheimer, *Early Christian*: 43-44.

البازيليكا المزدوجة (Double Basilica or Twin Basilica)

تمثل الكنائس (أو الكاتدرائيات) ذات التخطيط المعروف بالبازيليكا المزدوجة[٨٢] – والتي ظهرت في فترة مبكرة بعد مرسوم ميلانو (بعد سنة ٣١٣م)، ولم تلبث أن انتشرت في القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين بصورة ملحوظة – موضوعًا شيقًا وشائكًا في نفس الوقت. والكنيسة البازيليكا المزدوجة تمثل كنيستين أو بناءين متوازيين على امتداد محورهما الطولي، وكل من البناءين ذو تخطيط بازيليكي، وقد يفصل بينهما مساحة بنائية أو ممر ضيق، وقد يضاف للأخير معمودية أو زاوية صغيرة.

تناولت كارين[٨٣] هنريكس Henricks K.، *The Early Christian Double-Basilica* هذا الموضوع في أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه سنة ١٩٨٩م؛ وتنتهي من أطروحتها دون أن تتمكن من تفسير نهائي لوظيفية البنائين في البازيليكا المزدوجة بشكل يقيني، بل وتذكر أن النتيجة الحقيقية لعملها وفق آخر كلمات ختمت بها الأطروحة: «كيف أن معلوماتنا عن هذه الفترة المبكرة (القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين) ضعيفة جدًّا، وكيف نحكم عليها وفق أدلة وشواهد تعود لفترات متأخرة». وهنا حقيقة تكمن صعوبة الموضوع.

وتمثل مقالة كُرتهيمر Krautheimer "The Twin Cathedral at Pavia"[٨٤] باكورة الدراسات عن البازيليكا المزدوجة؛ فيذكر أن الكنيسة المزدوجة جاءت بداية كواحدة من الترتيبات المتعددة التي وجدت في العالم المسيحي المبكر؛ حيث تتجمع أو تتكتل منشآت ثانوية حول جسم الكنيسة. وفي هذا السياق تمثل جوهر الفكرة أن الكنيسة المزدوجة، شأنها في ذلك شأن كافة التجمعات، ظهرت رغبة في جمع وتوحيد أشكال معمارية خاصة تخدم أغراضًا وظيفية متباينة في مكان واحد (أي تعكس فكرة المجْمع المعماري ذي الأغراض الوظيفية المختلفة).

٨٢- لا توجد إشارة في الدراسات العربية عن البازيليكا المزدوجة، ويرجع ذلك غالبًا لعدم بقاء نموذج في مصر ـ حتى الآن ـ يمثل كنيسة مزدوجة بنيت ابتداءً كوحدة معمارية واحدة.

٨٣- Karen Ilene Peterson Henricks, *The Early Christian Double-Basilica* (PhD. diss., University of Missouri, Columbia, Dec. 1989): 38-39.

٨٤- R. Krautheimer, "The Twin Cathedral at Pavia", in *Studies in Early Christian Medieval and Renaissance Art*, translated by Joachim Gaehde (New York, NY: New York University Press, 1969): 161-180.

وتبرز الكنيسة المزدوجة ككيان معماري متمايز عن غيره من المجموعات المعمارية الأخرى. ويعرف Krautheimer الكنيسة المزدوجة بأنها: تمثل الكنيسة المزدوجة "Genuine Twin Church" الأصلية كتلة معمارية من بناءين طوليين متقاربين في المساحة إلى حدٍّ ما، ومتوازيين تقريبًا، ويفصل بينهما ممر ضيق؛ أو فناء صغير قد يحوي أحيانًا المعمودية، أو مصلى صغير. وأحيانًا تتقدم الكتلة سقيفة خارجية أو فناء خارجي مشترك. مع مراعاة الفصل والتمييز بين الكنيسة المزدوجة وفق هذا التعريف وبين أشكال الكتل المعمارية الكنسية الأخرى؛ ومنها البازيليكا الملحق بها مصلى صغير زاوية "Chapel" ، أو تلك المتكونة من بازيليكتين اللتين تمتدان على محور طولي واحد على التوالي، أو المواقع حيث تتجمع الملحقات الأخرى بالكنيسة مثل المعموديات والمواقع المقدسة والمشاهد والأضرحة والردهات... إلخ.

وتمثل كنيسة أكويليا أقدم نموذج للكنائس المزدوجة؛ ما جعل موقع أكويليا يحظى بكثير من أعمال الحفائر والدراسات وأعمال التوثيق.

النموذج الأول للبازيليكا المزدوجة
«كنيسة أكويليا Aquileia، شمال إيطاليا» (أشكال ٦٦- ٧١)

مدينة أكويليا، بشمال إيطاليا، كانت مركزًا تجاريًّا مهمًّا وموقعًا إستراتيجيًّا عسكريًّا فترة العصر الروماني. بنيت كنيسة أكويليا (البازيليكا المزدوجة) أعلى بقايا فيلا «دار» رومانية تعود للقرن الأول الميلادي، ولازالت بقاياها موجودة في موقع أسفل برج الكنيسة (القرن الحادي عشر الميلادي) والصالة الشمالية لبناء ثيوذورس (القرن الرابع الميلادي). وأغلب الظن أن الدار الرومانية كانت مستخدمة ككنيسة منزلية؛ ومع فترة السلام مع الكنيسة بعد مرسوم ميلانو بنيت كنيسة كبيرة في مكانها. وقد انعكس تأثير العمارة السكنية كتخطيط وعناصر معمارية، كما انعكس ترتيب الاستخدام الوظيفي للكنيسة المنزلية على عمارة الكنيسة الجديدة.

فكلٌّ من القاعتين (البازيلكتين) يمثل استمرارية لقاعات التجمع في المنازل قبل عصر قنسطنطين، وما حدث هنا تكرار لهذه الوحدة المعمارية، وهي تمثل في عمومها استمرارًا للعمارة المحلية[٨٥]. والتقسيم العام للمجموعة المعمارية ككل يعكس تأثير استخدام الكنائس المنزلية في التخطيط.

٨٥- Krautheimer, *Early Christian*: 43.

الكنيسة المزدوجة الأولى(٨٦)

تمثل كاتدرائية أكويليا في هذه الفترة المبكرة، وبناها الأسقف ثيوذروس (يذكر أنه الأسقف الرابع أو الخامس لأكويليا) في الفترة ٣١٣ – ٣١٩ م. وعرفت هذه الكنيسة بالكنيسة الثيوذورية نسبة إليه. ونسبة الكنيسة للأسقف ثيوذورس وكذلك تاريخها استنادًا لنص تأسيسي وضع على فسيفساء أرضية (مجلس الكنيسة) بالكنيسة الجنوبية عند وفاة ثيوذورس سنة ٣٢٠ م. وهناك نقش ثانٍ يشير الى الأسقف ثيوذورس بأرضية الكنيسة الشمالية يفيد تعريفه بأنه أسقف ومنشئ الكنيسة المزدوجة، والتاريخ مثبت أيضًا بتقنية الفسيفساء الأرضية.

تتكون مجموعة ثيوذورس المعمارية من كنيستين (واحدة جنوبية وثانية شمالية) متوازيتين ومتصلتين ببناء عرضي (مستعرض) يربط بينهما (شكل ٦٦). ويتكون البناء الأخير – متجهًا من الشرق إلى الغرب – من مدخل المجموعة المعمارية ككل، وممر أو (دهليز) ومجموعة من الحجرات، تليها صالة مستطيلة مستعرضة أي أن محورها الطولي يمتد شمال – جنوب، وتربط بين الكنيستين الجنوبية والشمالية، ويمثل البناء العرضي مساحة أكبر من أيٍّ من الكنيستين المجموعة المعمارية بالكامل مبنية خلال فترة زمنية قصيرة، وخططت ابتداءً كوحدة معمارية واحدة؛ فالجدران الخارجية للمجموعة متزامنة ومتصلة في البناء.

كلٌّ من الكنيستين تمثل بازيليكا مستطيلة (نحو ٢٠ × ٣٧ مترًا) المسقط تتجه من الغرب إلى الشرق، وتنتهي جهة الشرق بحنية مستطيلة المسقط، وتنقسم داخليًا إلى ثلاثة أروقة متساوية الاتساع تقريبًا بواسطة بائكتين، كلٌّ منهما مكون من ثلاث دعامات(٨٧).

الكنيسة الشمالية

رغم أن جزءًا كبيرًا من تخطيط الكنيسة الشمالية قد غُطِّي بإنشاءات تعود للقرن الحادي عشر الميلادي (برج الكنيسة)، فإنه واضح المعالم، فآثار قواعد الأعمدة موجودة في المكان بامتداد الأرضيات الفسيفسائية؛ حيث تقسم المساحة الداخلية إلى أربع وحدات كبيرة من الغرب إلى

٨٦– Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 53-60.

٨٧– Luisa Bertacchi, "Note Sulla unita construttiva dell' aula Teodoriana nord nel Complesso Culturaledi Aquileia", *Aquileia Nostra* 48 (1977): 237-256.

الشرق (ثلاث وحدات تمثل صحن الكنيسة، والوحدة الرابعة الشرقية تمثل هيكل الكنيسة) كل واحدة تمثل زخرفة أرضية مستقلة.

فسيفساء الجزء الغربي محدودة في اللون والتصميم، ومضمون زخارفها هندسية مع تصاوير عديدة للطيور وفروع نباتية، وقد وجد نقش ثيوذورس في هذه المساحة. الوحدتان في الوسط (الثانية والثالثة) تتوازيان مع بناء أقدم قوامه زخرفة الفسيفساء بها زخارف هندسية ونباتية وأشكال حيوانات. وقسمت فسيفساء الوحدة الأخيرة الشرقية إلى ثلاث مساحات؛ مساحتين طرفيتين متماثلتين تحصران بينهما مساحة مركزية على شكل شبه منحرف، ويشار إلى الأخيرة على موقع كرسي الأسقف، وتبعًا لتحديد موقع كرسي الأسقف يمكن تحديد أماكن بقية العناصر المعمارية الطقسية خاصة المذبح.

الكنيسة الجنوبية

يتم الدخول إليها عبر الدهليز والجزء الشمالي من البناء المستعرض بين الكنيستين. وتحتوي أرضياتها على فسيفساء ثرية في زخرفتها وتقنيتها؛ والتي ميزت وحددت عبر موضوعات زخارفها التقسيم الداخلي للمجموعة المعمارية.

الجزء الشرقي للكنيسة الجنوبية مفصول عن صحن الكنيسة بواسطة حجاب من الرخام. وهذا الفصل مؤكد كذلك عبر أرضيات الفسيفساء، وكان هو الجزء الوحيد من الكنيسة المغطى بقبو أسطواني مستعرض، ويفصل هذا الجزء عن صحن الكنيسة والبلاطتين المحيطتين به بائكة مستعرضة من ثلاثة عقود (على غرار تصميم قوس النصر الروماني)، وكان يوضع في الشرق مقعد الأسقف، ومقاعد رجال الدين، بينما المذبح (كان متحركًا غالبًا) كان يوجد في صحن الكنيسة.

مكان المعمودية الأولى بكنيسة ثيوذورس يذكر Tamaro أن مكانها في الجزء الشمالي من الدهليز الموازي للصالة العرضية الرابطة بين الكنيستين[٨٨]. والمعمودية تقع أسفل الشكل السداسي بالكنيسة التي بنيت لاحقًا في القرن الرابع الميلادي أيضًا أعلى الكنيسة الثيوذورية، وأعلى من البناء الروماني الأول.

٨٨- Bruna F. Tamaro, "Ricerche sull’aula Teodoriana nord e sui battisteri di Aquileia", *Aquileia Nostra* 34 (1963): 97-98.

فسيفساء الكنيسة الجنوبية[٨٩]

وتقسم لأربعة أجزاء رئيسية من الغرب إلى الشرق؛ منها ثلاث مساحات تمثل صحن الكنيسة والبلاطتين، مقسمة إلى تسع مساحات زخرفية محددة بإطار مزخرف بأوراق العنب.

وتعرض موضوعاتها التصويرية بالترتيب من الغرب إلى الشرق على النحو التالي: في الجزء الأوسط من البلاطة الجنوبية نجد رسم الراعي الصالح داخل مثمن مركزي، محاط برسوم حيوانات وطيور. ويليه في الجزء الأوسط من البلاطة الثالثة (المساحة التي تتقدم الهيكل مباشرة) تصوير داخل مساحة مربعة يرمز لطقس الإفخاريستيا، ملاك بجناحين يمسك بغصن النصر، وسلة من الخبز وأخرى من الكرم. وتنتهي المساحة الشرقية (الجزء المستعرض الشرقي من الكنيسة، والذي يمثل افتراضًا مساحة الهيكل) بمنظر تصويري بحري مليء بالحياة المائية ورسوم أسماك وصيد. ويحوي المنظر تصوير النبي يونس عليه السلام في رمزية لبعث المسيح عليه السلام، وبصورة مشابهة لرمزية الميلاد الجديد للموعوظ عبر العماد. كما يمكن تفسير رسوم السمكة للإشارة في رمزية إلى الموعوظ وإلى العماد (حيث الميلاد الجديد). ويتوسط هذه المساحة تقريبًا النقش الخاص بالأسقف ثيوذورس. وهناك آثار في أرضية الفسيفساء حول النقش قد تشير لموضع أرجل المذبح (شكل ٦٧).

ويشير Zovatto في قراءة موضوعية للبرنامج التصويري للفسيفساء وترتيبها، أنها تمثل بالتوازي من الغرب إلى الشرق موضوعات التعليم الديني ومراحل التعليم للموعوظين، وخطوات العماد: الرقية (التخلص من الأرواح الشريرة)، والتطهر، والخلاص، والافتداء، ويتوج ذلك بقبوله في طقس الإفخاريستيا (شكل ٦٨ – ٦٩).

وعلى الرغم من أن قراءة Zovatto تبدو منطقية فإنها لا تستند لدليل قاطع بدلالة رمزية الموضوعات والتي يمكن قراءتها في سياق مختلف، فضلاً عن أن أسرار طقس الإفخاريستيا وأيضًا طقوس العماد لم يكن يطلع عليها الموعوظ إلا قبل العماد مباشرة وبعد فترة ليست قصيرة من التربية والتأهيل الأخلاقي والمعنوي. أي أن الموضوعات لاتتسق واستخدام القاعة كمكان للموعوظين والذين ليس لديهم خلفية أو دراية بأسرار طقس العماد فضلاً عن الإفخاريستيا. وسنناقش هذه التحليلات وغيرها من الرؤى الأخرى عند مناقشة وظيفية البازيليكا المزدوجة.

٨٩- Paolo Lino Zovatto, "Il Significato della basilica doppia. L’Esempio di Aquileia", in *Rivista di storia della Chiesa in Italia*, vol. 18 (1964): 357-398; Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 57-63.

الكنيسة المزدوجة الثانية(٩٠)

حلت كنيسة مزدوجة بازيليكة جديدة محل كنيسة ثيوذورس نتيجة توسعة الكنيسة الشمالية وبعض أعمال البناء وذلك على مرحلتين في الفترة بين ٣٤٠ – ٤٠٨ م. فمن المحتمل أن الكنيسة الشمالية أعيد بناؤها أولاً وفي فترة لاحقة ربما منتصف القرن الرابع الميلادي أو قبل ذلك تم توسعتها، وباستخدام الجدران الشمالية والشرقية للبناء القديم في توسعة الكنيسة الشمالية فإن مساحتها تضاعفت تقريبًا في الطول وامتدت أكثر اتجاه الجنوب. وهذه الكنيسة الجديدة بعد التوسعة قسمت من الداخل إلى رواق أوسط وبلاطتين جانبيتين بواسطة صفين من الدعامات (١٤ دعامة). والنهاية الشرقية للكنيسة مستطيلة المسقط، وتمثل استمرارًا للتقليد المحلي في البناء (شكل ٧٠).

ومكان المعمودية في هذا البناء الجديد يقع جنوب الكنيسة الشمالية، وقد أخذ الحوض شكلاً سداسيًّا بنهايات بيضاوية.

الكنيسة الجنوبية تم توسعتها أيضًا بصورة كبيرة في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي، وتنسب التوسعة هذه للأسقف كرومازيو (٣٨٨ – ٤٠٥ م). فامتدت الكنيسة الجنوبية الجديدة باتجاه الشرق والشمال. والبازيليكا المزدوجة الناتجة عن المرحلة الثانية من الإنشاء تمثل نمطًا متطورًا متميزًا.

المجموعة المعمارية (شكل ٧١) أصبح يتقدمها سقيفة من الجهة الغربية تمتد بعرض المجموعة، وأصبح يفصل بين الكنيستين مر ضيق ويوجد فيه الحوض السداسي للمعمودية.

وقد أنشأ كرومازيو بناءً جديدًا (معمودية) على محور واجهة الكنيسة ويتصل بناء المعمودية الجديدة بالسقيفة الغربية للكنيسة الجنوبية. ويتكون بناء كرومازيو من غرف جانبية تحيط بالمعمودية من جهتي الشمال والجنوب. وتمثل المعمودية الجديدة بناءً نمطيًّا ثابتًا وحرًّا، مربع الشكل من الخارج ومن الداخل يأخذ شكلاً مثمنًا بحنايا ركنية عميقة. ويأخذ حوض العماد شكلاً سداسيًّا.

تأخذ النهاية الشرقية للكنيسة الجنوبية كما بالكنيسة الشمالية مسقط مستطيل، وهي مقسمة بواسطة بائكتين من الدعامات إلى رواق أوسط وبلاطتين جانبيتين. وتمثل كنيسة أكويليا نموذجًا كاملاً للبازيلكا المزدوجة، بخاصة (النموذج المتطور) بنهاية القرن الرابع الميلادي.

٩٠- Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 65-67.

النموذج الثاني للبازيليكا المزدوجة
«كنيسة ترييرTrier [٩١]، ألمانيا» (أشكال ٧٢ – ٧٥)

بنيت المجموعة المعمارية الضخمة للبازيليكا المزدوجة لمدينة ترييرفي الفترة بين سنوات ٣٢٦ – ٣٤٨ م، وقد خططت بداية كوحدة معمارية واحدة (الكنيستين). وكان موقع هذه البازيليكا المزدوجة القصر الملكي السابق، والذي أورثته والدة الإمبراطور قنسطنطين الإمبراطورة Helena، للقديس أجريكيوس أسقف مدينة ترييرر.

المجموعة المعمارية المزدوجة تتكون من كنيستين (بازيليكا مزدوجة)؛ كل منهما ذو مسقط مستطيل (الجنوبية ٧٣×٣٠م، الشمالية ٧٣×٣٨مترًا) يتقدمها أفنية وصف من الحجرات الجانبية وتحصران بينهما معمودية (شكل ٧٢ – ٧٣).

الكنيسة الجنوبية (شكل ٧٤) بنيت أولاً وتمت بصورة كاملة نحو سنة ٣٣٠ م، وتم الاعتماد في بنائها السريع على مواد البناء من أسلاب تخص العمائر الأقدم في المنطقة. وتخطيطها بازيليكي بسيط وهي أصغر مساحة من الكنيسة الشمالية. يتقدم الكنيسة من الجهة الغربية فناء به صفان من الأعمدة، وسقيفة مدخل الكنيسة. الكنيسة مقسمة من الداخل إلى رواق أوسط وبلاطتين جانبيتين بواسطة بائكتين، كل منها مكونة من ٣ أعمدة. النهاية الشرقية للكنيسة تقع داخل الجسم المستطيل للبناء، وتشغل مساحة مساوية لبائكتين عرضيتين من البوائك الداخلية للكنيسة. المساحة المركزية بالنهاية الشرقية تمتد بكامل طول البائكتين مكونة مساحة مربعة. على كل من جانبيها تكوين معماري يمثل يتكون من ردهة أمامية مستطيلة مستعرضة، يتوصل عن طريقها إلى حجرتين صغيرتين.

جميع الأعمدة في المجموعة المعمارية تمتد من الفناء إلى الشرق بمحاذاة واحدة، وتتسق مع فتحات الأبواب (التي تفتح بين الوحدات الرئيسية للبناء).

الهيكل الأصلي الذي يعود لعصر قنسطنطين يمثل مربعًا مرتفعًا مجهزًا أسفله بنظام تدفئة. والمذبح كان يتوسط مركز مساحة الهيكل.

٩١- Krautheimer, *The Constantinian Basilica*: 118-120; Krautheimer, *Early Christian:* 48-50; Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 79 f.

الكنيسة الشمالية (شكل ٧٥) تخطيطها كذلك بازيليكي، وقد بدأ تشييدها بعد فترة قصيرة من إنشاء الكنيسة الجنوبية، وربما استغرق بناؤها وقتًا أطول من الكنيسة الجنوبية. ويشار إلى هذه الكنيسة عادة على أنها الكنيسة التي شهد بها القديس أثاناسيوس السكندري القداس سنة ٣٤٠ م.

يتقدم الكنيسة فناء معمّد وسقيفة المدخل (دركاة داخلية). وتتصل سقيفة المدخل الأخيرة بالمعمودية، وأيضًا بالكنيسة الجنوبية. الكنيسة الشمالية أكثر اتساعًا من الجنوبية إلى حدٍّ ما، وهي مقسمة من الداخل إلى رواق أوسط وبلاطتين جانبيتين بواسطة صف من ٧ أعمدة وموقع النهاية الشرقية لهذه الكنيسة مباشرة أعلى الحجرة المزخرفة بالقصر الملكي السابق عليها، وهي ضمن الإطار المستطيل لتخطيط الكنيسة من الخارج.

واحتواء كل من الكنيستين على هيكل، وعلى الرغم من التشابه بين تخطيط الكنيستين، فإنه بالتأكيد كل من الكنيستين كانت لها وظيفة مختلفة.

النموذج الثالث للبازيليكا المزدوجة
«كنيسة جميلة "Djemila"[٩٢] بالجزائر، شمال إفريقيا» (أشكال ٧٦ – ٧٧)

مدينة جميلة "Djemila" الجبلية بالجزائر (مدينة Cuicul الرومانية) تزخر بالعديد من المواقع الأثرية المهمة التي تعود للعصر الروماني والعصر المسيحي المبكر.

تؤرخ الكنيستان بالفترة نهاية القرن الرابع الميلادي وبدايات القرن الخامس الميلادي؛ ويوجد نص تأسيسي بالكنيسة الجنوبية يذكر الأسقف Cresconius ويشير إلى حضوره مجْمع قرطاج سنة ٤١١م. والمرجح أن الكنيسة الشمالية الأصغر بنيت أولاً، ثم استجابة للحاجة ولشعبية الموقع المتزايدة لارتباطه بالشهداء وآثارهم المقدسة، تم بناء كنيسة جديدة أكبر، هي الكنيسة الجنوبية.

البازيليكا المزدوجة تتكون من كنيستين بازيليكتين تحصر بينهما على المحور الطولي ممرًّا طوليًّا ضيقًا (شكل ٧٦). يحيط بالكنيستين مجموعة معمارية كاملة من منشآت ثانوية تكوّن معًا ما يعرف بالحي المسيحي؛ حيث تشمل مباني إدارية، ومباني سكنية تخدم احتياجات رجال الدين، وتشمل أفنية

٩٢- P. A. Février, "Le développement urbain en Afrique du Nord", *Cahiers Archéologiques* 14 (1964): 1-47; Krautheimer, *Early Christian*: 191-192; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 116; Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 211-215.

عديدة، وحمامًا صغيرًا، وبناءً بازيليكيًّا آخر مصغرًا، ومعمودية مستديرة التخطيط مغطاة بقبة.

موقع وتخطيط المعمودية: يرجح البناء البازيليكي والأبنية الثانوية المتصلة بالمعمودية استخدام هذه البازيليكا الصغيرة كمكان للموعوظين. وهذا يجعل هذه الوظيفة مستثناة تمامًا من كلا الكنيستين، فضلاً عن احتواء كليهما على هيكل ومذبح ما يؤكد هذا الترجيح على وجه اليقين.

كلا الكنيستين بازيليكية التخطيط، ويوجد سرداب أسفل الحنية في كليهما؛ يتم الدخول إلى كل منهما من الشرق بواسطة دهليز رابط بينهما. وكلا الكنيستين كذلك فرشت أرضياتهما بفسيفساء جميلة ذات زخارف هندسية ونباتية وعناصر حيوانية. منطقة الهيكل بكلا الكنيستين تمتد داخل الرواق الأوسط بالكنيسة، ومفصولة بواسطة حجاب (وهو النمط الشائع في كنائس شمال إفريقيا). يفصل بين الكنيستين ممر طولي موازٍ لذات المحور الطولي للكنيستين، وتتحازى واجهته الغربية مع واجهة الكنيسة الشمالية. ويتصل الممر بالكنيسة الجنوبية عبر مجموعة من الأبواب والسلالم، لكنه لا يتصل بصورة مباشرة بالكنيسة الشمالية.

الكنيسة الشمالية تمثل بازيليكا تقليدية من صحن أوسط وبلاطتين جانبيتين وحنية نصف مستديرة المسقط تجاه الشرق. يفصل بين الرواق الأوسط والبلاطتين بائكتان من أعمدة رخامية.

والكنيسة الجنوبية وهي الأكبر مساحة، وتتبع نفس التخطيط البازيليكي، لكن تختلف عن الشمالية في عدد البلاطات الجانبية حيث يحيط بالرواق الأوسط بلاطتان من كل جانب بدلاً من بلاطة واحدة. يفصل بين الرواق الأوسط والبلاطتين بائكتان من أعمدة رخامية مزدوجة، وتختلف أيضًا كونها يتقدمها من الجهة الغربية سقيفة خارجية.

النموذج الرابع للبازيليكا المزدوجة
«كنيسة عين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر (القرن الرابع الميلادي)»
(أشكال ٧٨ – ٨٧)

عين الجديدة بواحة الداخلة بالصحراء الغربية بصعيد مصر؛ وتم الكشف فيها عن مجْمع الكنسي مؤرخ بالقرن الرابع الميلادي عبر مرحلتين من أعمال الحفائر؛ المرحلة الأولى كانت تحت إشراف المجلس الأعلى للآثار[٩٣] المصري في الفترة ١٩٩٣ – ١٩٩٥م، وشارك فيها الأستاذ كمال بيومي وكتب مقالاً[٩٤] عن نتائج حفائر هذه المرحلة. والمرحلة الثانية تمثل حفائر مواسم ٢٠٠٦ – ٢٠٠٨ م، وقامت بها بعثة مشتركة من المجلس الأعلى للآثار مع الجامعة الكولومبية[٩٥].

تم الكشف عن المجموعة الكنسية عبر المرحلتين معًا؛ حيث تم الكشف عن الكنيسة الرئيسية وبها الحنية الشرقية وبعض العناصر المعمارية الأخرى والتي تؤكد وظيفتها ككنيسة سنة ٢٠٠٦ م، واستمرت الحفائر سنة ٢٠٠٧ م، ويرمز لها على المخططات والصور B5، وسأعرفها لاحقًا بالكنيسة. بينما قاعة التجمع شمالي الكنيسة – والموازية لها والمتصلة بها بل والتوصل إلى الكنيسة لايتم إلا عبرها – تم الكشف عنها في حفائر سنة ١٩٩٦م تحت إشراف المجلس الأعلى للآثار. وأعيد تنظيفها مرة ثانية من التراب نتيجة الرياح، وتم تسجيلها سنة ٢٠٠٧ م، ويرمز لها على المخططات والصور A46، وسأعرفها لاحقًا بالكنيسة الثانوية. وسأشير إلى الكنيسة والكنيسة الثانوية معًا بمصطلح الكنيسة المزدوجة، وإلى الكنيسة المزدوجة مضافًا إليها الممر والدركاة المؤديان إليها والملحقات الأخرى بالمجْمع الكنسي.

٩٣– حاليًا وزارة الدولة لشئون الآثار.

٩٤– Kamel A. Bayoumi, "Excavations at Ain al-Gadida in the Dakhleh Oasis", in *Life on the Fringe: Living in the Southern Egyptian Deserts during the Roman and Early-Byzantine Periods: Proceedings of a Colloquium Held on the Occasion of the 25th Anniversary of the Netherlands Institute for Archaeology and Arabic Studies in Cairo 9-12 December 1996,* edited by Olaf E. Kaper (Leiden, 1998): 55-62.

٩٥– للمزيد عن كنيسة عين الجديدة وأعمال الحفائر بها ونتائجها، انظر:
Nicola Aravecchia, *Christians of the Western Desert in Late Antiquity: The Fourth-Century Church Complex of Ain al-Gadida, Upper Egypt* (PhD diss., University of Minnesota, 2009).

وأسفرت الحفائر في موقع عين الجديدة عن تقسيم منطقة العمل لمجموعة من المناطق أو الكيمان، ويعنينا منها هنا المنطقة الأولى "Mound 1"؛ حيث وجد المجْمع الكنسي والذي يتكون من الكنيسة المزدوجة ومجموعة من الغرف ملحقة بها. يشغل المجْمع الكنسي مساحة نحو ١٦٤م٢، وتقع الكنيسة في الجزء الجنوبي من المجْمع، ومساحتها نحو ٣٥,٥ م٢، ويتوصل إليها من الكنيسة الثانوية ومساحتها ٣٦,٥م٢. وممر (دهليز) مستطيل محوره الطولي يمتد من الشرق إلى الغرب، ويرمز له على المخططات والصور B7 وسأعرفه لاحقًا بالممر. ويفضي الممر في نهايته الغربية إلى دركاة المجْمع الكنسي، ويرمز لها على المخططات والصور B6، وسأعرفها لاحقًا بالدركاة. وعن طريق الدركاة تتصل بالكنيسة المزدوجة بوحدات معمارية أخرى؛ فبواسطة باب بالزاوية الغربية بالجدار الجنوبي للدركاة تصل إلى داخل الكنيسة المزدوجة، بينما تتصل الدركاة عبر باب بالزاوية الغربية بجدارها الشمالي بحجرة أخرى يرمز لها على المخططات والصور B9، وبالزاوية الشرقية بنفس الجدار يوجد فتحة باب تقود إلى سلم يوصل إلى بقايا الأسطح المقببة الخاصة بحجرتين شمالي غربي الدركاة، ويرمز لهما على المخططات والصور B9 and B10. (شكل رقم ٧٨، شكل رقم ٨٧)

يمثل الممر طريقًا ثانويًا ينتهي جهة الغرب بفتحة تمثل المدخل الوحيد للمجْمع الكنسي، وهو مساحة مستطيلة أبعادها ١,١٣ × ٥ أمتار (شكل ٨٢)، والجدران مبنية بالطوب اللبن. يفضي الممر إلى الدركاة (شكل ٨٠) والتي تقع شمالي غرب الكنيسة المزدوجة. الدركاة مستطيلة المسقط ٣,٧٨ × ٢,٧٧ متر، وتمثل مركز الحركة والانتقال داخل المجْمع الكنسي.

الكنيسة الثانوية

المدخل الوحيد لها من الدركاة عبر فتحة باب يقع في الزاوية الشمالية الغربية للكنيسة الثانوية. اتساع فتحة الباب ٨٠ سم وعمقها ٧٠ سم، وعتب الباب مازال موجودًا وهناك آثار فتحات تمثل أماكن تثبيت الباب الخاص بالكنيسة الثانوية. تخطيط الكنيسة الثانوية عبارة عن قاعة مستطيلة (أبعادها ٩,٣٠ × ٤ أمتار) تمتد موازية للكنيسة ومساوية لها في المساحة تقريبًا وتأخذ نفس محورها الطولي. على نفس محور باب الكنيسة الثانوية توجد فتحة باب بالزاوية الجنوبية الغربية تمثل المدخل الوحيد للكنيسة في شكلها النهائي. اتساع فتحة المدخل هذه باتساع ٨٠ سم وعمق ٧٠ سم، وعتب الباب مازال موجودًا، وهناك آثار فتحات تمثل أماكن تثبيت الباب الخاص بالكنيسة. الجدران التي كشفت

عنها الحفائر حفظت بارتفاع نحو٢,٢٠ م وحتى٢٦٥ م، ويعلو الجدران آثار تدل على أن الكنيسة الثانوية وكذا الكنيسة كانتا مغطاتَين بأقبية.

ويمثل الجدار الجنوبي للكنيسة الثانوية جدارًا مشتركًا بينها وبين الكنيسة؛ حيث هو نفسه الجدار الشمالي للكنيسة (أشكال ٨١ – ٨٢). وكان يوجد مدخل ثانٍ للكنيسة يتوسط هذا الجدار المشترك؛ ولكن فتحة المدخل هذا سُدت في فترة لاحقة على تاريخ بناء الكنيسة غير معلومة بواسطة بناء من الطوب اللبن يمكن تمييزه بسهولة عن البناء الأصلى للجدار، ليشير إلى ثمة تغير في الشكل المعماري والغالب أنه ناتج عن تغير وظيفي أو احتياج وظيفي مختلف. وفتحة هذا المدخل متسعة (٢ متر اتساع و٨٥ سم عمق «سمك الجدار»).

الكنيسة

مساحة مستطيلة المسقط (١١,٣٥ × ٣,٦٥ أمتار) محورها الطولي يمتد من الغرب إلى الشرق، وموجهة باتجاه الشرق، وتنتهي بحنية نصف مستديرة جهة الشرق. واتصالها بالخارج غير مباشر؛ حيث يتم فقط عن طريق الكنيسة الثانوية والتي تتصل بالخارج بدورها بواسطة الدركاة. لتعبر بذلك عن مستويات متدرجة من خصوصية الأماكن العامة، والتي تمثل فيها الكنيسة أعلى مستوياتها خصوصية في أوقات معينة؛ فأثناء طقوس قداس الإفخاريستيا يحضر فيها المؤمنون فقط، ولا يسمح للموعوظين من غير المعمّدين، والذين قد ينسحبون للكنيسة الثانوية في هذا الوقت. وداخل الكنيسة تدرج ثان حيث تمثل الحنية والهيكل أعلى الأماكن خصوصية في الكنيسة، فهي قاصرة في دخولها واستخدامها على رجال الدين من ذوي الرتب الكهنوتية (أشكال ٧٩، ٨٣، ٨٧).

الجدار الجنوبي للكنيسة يتكون من ثلاثة أجزاء ليست على محاذاة واحدة؛ يعكس احتمالية التوسع جهة الغرب، والتقيد عند هذا التوسع بخط تنظيم الطريق جنوبًا (أشكال ٧٩، ٨١، ٨٢). الجدار الشمالي للكنيسة (والمشترك بينها وبين الكنيسة الثانوية) يتكون أيضًا من ثلاثة أجزاء بنائية وفتحة الباب في أقصى الغرب منه. الجزء الأول من جهة الشرق ينتهي بكتف بنائي عرضي لزيادة تدعيم الجدار والسقف. يليه غربًا الجزء الذي أغلق على المدخل المتسع الذي كان يربط بين الكنيسة الثانوية، يليه الجزء الثالث، ويفصل بينه وبين الجدار الغربي للكنيسة فتحة الباب الوحيد للكنيسة في تخطيطها النهائي.

تنتهي الكنيسة جهة الشرق بحنية نصف دائرية المسقط (أشكال ٧٩، ٨١، ٨٣، ٨٦)، نصف قطر الحنية نحو ١,٧٥متر، ويحدد الحنية عمودان مدمجان بنقطتي التقاء الحنية مع الجدار الشرقي تجاه صحن الكنيسة، كلٌّ من العمودين ذو مسقط أسطواني بقطر ٣٤سم، والمتبقي منهما ارتفاع ١٣٨سم (العمود الشمالي)، ١٤٨سم (الجنوبي). كلا العمودين ذو بدن أسطواني ينتهي عند القاعدة بشريط بارز ضيق يدور حول البدن، ويرتكز على قاعدة مستطيلة (٢٥ × ٤٥ × ٢٠ سم).

ترتفع الحنية نحو ٤٠ سم عن مستوى أرضية صحن الكنيسة الأصلية. ولكن المنصة انهارت بالكامل منذ فترة بعيدة. ولا توجد أي آثار لسلالم تقود للهيكل المرتفع. تفتح الحنية من الداخل باتجاه الجنوب بشكل حرف L غرفة حفظ ملابس الكهنة Pastophorion؛ وهي عبارة عن دخلة مربعة طول ضلعها ٧٠ سم وترتفع ٤٠ سم فوق المستوى الأصلي لأرضية الحنية. وتوجد فتحة بالزاوية الشمالية الشرقية للدخلة على ارتفاع نحو ٥٠ سم من أرضية الدخلة تشير إلى أنه كان يوجد باب يغلق على Pastophorion.

الحنية والـ Pastophorion بُنيا كوحدة معمارية واحدة؛ ولكنها مضافة في فترة لاحقة على القاعة تمثل الكنيسة. فجدران الحنية والـ Pastophorion غير مستمرة مع جداري القاعة الشمالي والجنوبي. وكشفت الحفائر عن الجدار الأصلي الذي يمثل الحد الشرقي للقاعة (وهو يمثل الحد الغربي للحنية) (شكل ٨٦).

يواجه عضادة المدخل الأوسط (المسدود) بالجدار الشمالي منصة مدرجة مستطيلة (شكل ٨٤) وأثرها ظاهر كذلك من الجهة المقابلة للجدار بالكنيسة الثانوية (شكل ٨٥)، ولكنها تبرز فقط بالكنيسة. وعندما سد هذا المدخل أخفيت بصورة جزئية هذه المنصة. الجزء المكتشف منها داخل الكنيسة يمثل درجة مرتفعة أبعادها (١٣٥ سم شرق – غرب، ٩٣ سم شمال – جنوب، ٤٧ سم ارتفاع). وإذا ما دمجت مع المساحة الباقية منها والداخلة في بناء الجزء من الجدار الذي سد به المدخل لاحقًا تكون الأبعاد ١٨٠سم من الشمال للجنوب، وتتكون المنصة من ثلاث درجات من الطوب اللبن ومغطاة بطبقة كثيفة من الملاط الطيني الصلد يربط بين الدرجات.

هذه المنصة المدرجة كانت تستخدم كأمبون «منبر» حيث يقرأ من عليه الواعظ الكتاب المقدس أو يلقي الموعظة، وعبر الوقوف على هذه المنطقة العالية في الممر الواصل بين قاعتي الكنيسة المزدوجة

يتمكن الحاضرون في كلا القاعتين من سماعه ورؤيته. وبالتأكيد فقد المنبر وظيفته بعد سدّ هذا الممر الرابط بين القاعتين.

توجد مصطبة من الطوب اللبن ذي طبقة كثيفة من الملاط الطيني بمحاذاة الجدران الشمالي والجنوبي والغربي (عدا اتجاه الحنية)، اتساعها نحو ٣٠ سم، وترتفع عن مستوى أرضية الكنيسة نحو ٢٨–٣٠ سم. وهي موجودة كذلك في الكنيسة الثانوية.

أسفل مستوى أرضية الكنيسة تم الكشف عن جدران أساسات أقدم تمتد من الجنوب للشمال وسط صحن الكنيسة تقريبًا بحيث تقسمه لجزأين، وتمتد نفس الأساسات شمالاً في الكنيسة الثانوية.

بُني المجْمع الكنسي ككل من الطوب اللبن، والجدران من الطوب اللبن الغني بالمكونات العضوية. مقاسات الطوب (نحو ٩ × ١٧ × ٣٤ سم) متبنية المقاسات النموذجية لبلاطات الطوب اللبن الروماني. وفي الأسقف (الأقبية) اسُتخدمت بلاطات لبن ذات حجم أكبر (نحو ٤٣ × ٤٥ × ٢١ – ٢٣ × ٨ – ١٠ سم). والحجر إن وجد فكان استخدامه قاصرًا على أعتاب الأبواب. ولا توجد آثار لأخشاب كمادة إنشائية.

نشأة البازيليكا المزدوجة وإشكاليات الوظيفة

يذهب Krautheimer – متفقًا في ذلك مع Rudolf Egger وW. Gerber، اللذين قاما بالحفائر في موقع دالماتيا بسالونا "The Dalmatian Site of Salona" – إلى أن نشأة الكنيسة المزدوجة كانت في إيستريا[٩٦] في بداية القرن الرابع الميلادي.

ظهر نمط البازيليكا المزدوجة منذ بدايات القرن الرابع الميلادي وانتشر طوال القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين بصفة خاصة في أوروبا، ثم أخذ هذا النمط في الاختفاء حتى عاد للظهور مرة أخرى فترة العصور الوسطى مع الفنين الرومانسكي والقوطي. وتمثل وظيفة الكنيستين المتوازيتين القريبتين واستخدام كل منهما إشكالية خاصة في الكنائس المبكرة التي تعود للقرنين الرابع والخامس الميلاديَّين. وسنناقش هذه الإشكالية في ضوء النماذج السابقة وغيرها من النماذج.

٩٦– تمثل إيستريا "Istria" أكبر شبه جزيرة بالبحر الأدرياتيكي، وتتقاسمها ثلاث دول هي سلوفينيا وكرواتيا وإيطاليا.

تظهر الإشكالية بصفة خاصة في كنيسة أكويليا، حيث لا يمكن الجزم بوظيفة القاعتين أو الكنيستين الجنوبية والشمالية، أو حتى الجزم بوجود مذبح في أيٍّ منهما أو في كليهما. وسنعرض للآراء التي قيلت في هذا الصدد ومناقشتها ثم نختم برأي الدراسة في هذه الإشكالية.

تذهب كثير من الآراء إلى أن الكنيسة الجنوبية بالبازيليكا المزدوجة بأكويليا اسُتخدمت كمكان للموعوظين(٩٧)، وأن الكنيسة الشمالية كانت كنيسة للصلاة يتم فيها قداس الإفخاريستيا. ويذهب Schumacher إلى أن البناء الثاني كان كنيسة كاملة وليس مجرد قاعة للموعوظين أو العماد، وأن الرسوم تقود لاستخدام محدد (الاحتفال بالقداس). بينما يذكر Krautheimer أن الكنيسة الجنوبية كانت مقر الأسقف وبها مذبح (متحرك) ومن ثم فيقام فيها قداس الإفخاريستيا. ويناقش Krautheimer وظيفة الكنيستين (البازيلكتين أو القاعتين) في البازيليكا المزدوجة بباڤيا؛ فيرجح (مقتفيًا أثر Gnirs) أن واحدة كانت تحوي المذبح (أو الهيكل) ولذا كانت تستخدم في الاحتفال بقداس الشكر الإفخارستيّا "Eucharist" ، والبازيليكا الثانية من المحتمل أنها كانت تستخدم للتثبيت "Consignatorium". في هذه الفترة كان هناك ثمة مذابح متحركة شائعة لأداء الطقوس، وفي الفترة المبكرة لا يمثل عدم وجود مذبح ثابت دليلاً على عدم إقامة طقوس صلاة الشكر في هذا المكان. ومن هنا تتضح إشكالية أن كل هذه التفسيرات تظل اجتهادات دون دليل يقيني يقطع باستخدام دون آخر.

ومن الواضح أن البازيلكتين؛ واحدة تمثل كنيسة تقليدية يقام فيها القداس، والإشكالية تتمثل في البازيليكا الثانية ووظيفتها خاصة النماذج المبكرة، ومن الاستخدامات المطروحة تتمثل في التالي: قاعة للموعوظين، التحضير للعماد، التثبيت، كنيسة ثانية كاملة، قاعة لتعليم ودراسة الكتاب المقدس، وفي مرحلة ثانية مكان لحفظ الذخائر المقدسة للشهداء.

٩٧- Teodor Konrad Kempf, "Ecclesia Cathedralis eo quod ex duabus ecclesiis Perficitur", *Art del I Millenio*: 3-10; Helge, "Aus der Baugeschichte der Spatantike, 2, Die Erklarung der Doppelbauten", *Dansk Teologisk Tidskrift* 21 (1958): 95-99; Zovatto, *Il Significato della basilica*: 357-398.

وفي نموذج كنيسة أكويليا في محاولة لتقديم دليل غير تقليدي على استخدام الكنيسة الثانية كمكان للموعوظين قام زوڤاتو Zovatto[٩٨] بدراسة الموضوعات التصويرية لفسيفساء أرضيات كنيسة أكويليا "Aquileia". فيذهب Zovatto إلى أن البازيليكا المزدوجة كانت تستخدم واحدة ككنيسة تقام فيها الطقوس، والثانية للموعوظين. والجديد هنا ليس تحديد الوظيفة بل الدليل الذي قدمه لإثبات ذلك؛ فهو يدلل على استخدام المكان الثاني لجمع الموعوظين عبر دراسة البرنامج التصويري للفسيفساء الأرضية لهذه الصالة (الجنوبية)، وترتيب الموضوعات التصويرية؛ والتي قسمها – كما سبق القول – لأربعة أجزاء رئيسية من الغرب إلى الشرق وبالتوازي التعليم الديني، ومراحل التعليم للموعوظين، وخطوات العماد: الرقية (التخلص من الأرواح الشريرة)، والتطهر، والخلاص، والافتداء، ويتوج ذلك بقبوله في طقس الإفخاريستيا. ورغم وجاهة هذه القراءة فإنها مردود عليها؛ حيث إن طقوس العماد والإفخاريستيا وسرية رمزيتها لا يطلع عليها الموعوظ إلا قبل العماد مباشرة ومن ثم فموضوعات البرنامج التصويري وفق هذه القراءة تقدم دليلاً على عدم استخدام المكان للموعوظين وليس العكس. وهذا يتفق مع رأي Schumacher أن الكنيسة الجنوبية كانت تمثل كنيسة كاملة وليس مجرد قاعة للموعوظين أو العماد، وأن الرسوم تقود لاستخدام محدد (الاحتفال بالقداس)[٩٩].

ويقترح Zovatto نفسه تفسيرًا مختلفًا لوظيفة المكان الثاني ضمن البازيليكا المزدوجة كقاعة لمدارسة وقراءة الكتاب المقدس نتيجة تأثر البازيليكا المزدوجة بالمجْمع اليهودي؛ والذي تطور بإنشاء حجرة ثانية بجانب قاعة العبادة الرئيسية بغرض دراسة وقراءة التوراة.

وفكرة استخدام مكان للموعوظين ضمن المجموعة المعمارية الكنسية يعود لفترة مبكرة ومفهوم الكنيسة المنزلية – مثل نموذج دورا أوربوس بسوريا – وفي هذا النموذج الفصل والتمييز واضح بين المكانين بحسب التصميم والمساحة والتوجه وعلاقة المكانين ببعض، فالكنيسة أو مكان التجمع الرئيسي قاعة كبيرة مستطيلة محورها الطولي من الغرب للشرق، بينما مكان الموعوظين عمودي عليه يتجه شمال – جنوب يتصل بالكنيسة (مكان التجمع) بواسطة باب في نهايته الغربية.

٩٨– Zovatto, *Il Significato della basilica*: 357-398.

٩٩– W. N. Schumacher, "Die ‹Opferprozession› in Aquileia", in *Akten des VII. Internationalen Kongresses für Christliche Archäologie* (Città del Vaticano: Pont. Ist. di Archeologia Cristiana, 1969): 683-694.

وتمثل كنيسة عين الجديدة بالواحة الداخلة بصحراء مصر الغربية المؤرخة بالقرن الرابع الميلادي، نموذجًا متطورًا شديد الأهمية يمثل مرحلة انتقالية بين الكنيسة المنزلية والكنيسة الرسمية – إن جاز التعبير– ، بعد السلام مع الإمبراطورية عبر مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ م والكنيسة المزدوجة خاصة.

حيث من الواضح إن القاعتين في كنيسة عين الجديدة تمثلان وحدة معمارية واحدة لها مدخل واحد، والدخول إلى الكنيسة الجنوبية عبر القاعة الشمالية (الكنيسة الثانوية)، وكانتا متصلتين بصورة مباشرة عبر مساحة متسعة تتوسط الجدار المشترك بينهما؛ حيث يوجد الأمبون (المنبر)، والذي لا تزال آثاره واضحة؛ ليؤكد صبغة الكيان المعماري الواحد للمكانين معًا، ثم حدث سد لهذا المدخل المتسع ببناء واقتصر الاتصال بين المكانين على مدخل بأقصى الجهة الغربية من الجدار المشترك بينهما، والذي يمثل المدخل الوحيد للكنيسة الجنوبية في شكلها النهائي.

مثل هذا النموذج والنماذج الأخرى سابقة الذكر يجعلنا نناقش قضية وظيفة الكنيسة المزدوجة، واستخدام البازيليكا الثانية (أو المكان الثاني) كمكان بصورة أفضل في سياق تأثر النماذج المبكرة لهذا التخطيط بالعمارة السكنية في ضوء عمارة الكنائس المنزلية، أي أماكن العبادة الأولى في المسيحية.

وهناك محدد آخر يجب الإشارة إليه وهو التغير الجذري الذي حدث بعد السلام مع الكنيسة؛ والذي نتج عنه تغيرات جوهرية في طبيعة الحياة داخل الكنيسة، وكذا مراحل التنصر ومداها الزمني والطقوس نفسها؛ مثل طقس العماد وما صاحبه من تغيرات.

ولنأخذ مثالاً على ذلك موضوع الموعوظين وحتى الوصول لطقس العماد ثم التثبيت انتهاءً بالمشاركة في قداس الشكر. فقبل السلام مع الكنيسة، كان الموعوظ (وفقًا لرسالة هيبوليتس في رسالته سنة ٢١٥ م) بداية يلتحق بالكنيسة كموعوظ بناءً على تزكية من أحد أعضاء الكنيسة، تمثل شهادة منه بحسن أخلاقه وأمانته. ويظل الموعوظ فترة ثلاث سنوات كموعوظ، يتلقى خلالها برنامجًا تربويًّا تعليميًّا يتركز على الأخلاقيات والقيم وذلك على يد معلم أو ملقن. وعلى الموعوظ في هذه الفترة أن يشارك في الخدمات العامة وأنشطة الكنيسة وكافة الدروس والمواعظ ويحظر عليه فقط المشاركة في قداس الإفخاريستيا.

وتنتهي هذه الفترة بتأهيل الموعوظ، بعد التأكد من استقرار القيم والأخلاقيات المتفقة مع الكنيسة داخله، للعماد الذي كان في موعد ثابت قبل أحد عيد القيامة (أو الباسخا)، والعماد له طقوسه أيضًا

ومنها أن يكون من سيعمد والكاهن الذي سيقوم بتعميده كلاهما صائمين وغير ذلك من الطقوس، ويشرح عندها الكاهن للموعوظ سر التعميد ورمزيته. ولاشك أنه في هذه الفترة كان هناك انتقاء بعناية لمن سيصبح عضوًا في الكنيسة حيث كان من يقدم على ذلك على إدراك بأنه قد يتعرض لمشكلات قد تصل للاضطهاد أو حتى الموت في ظل اعتناقه لدين على عكس إرادة الدولة.

وبعد التصالح مع الكنيسة حدثت تغيرات حيث صار هناك إقبال كبير على الدخول في المسيحية، وبالتالي زادت أعداد من يرغبون في التحول للمسيحية (الموعوظين) بصورة كبيرة، وأيضًا كان هناك تحول بالجملة، فنجد قبائل كاملة تتحول إلى المسيحية مثل الشعوب الجرمانية. وانعكس ذلك على تقليص فترة الوعظ قبل العماد حتى وصلت في بعض الحالات لبضعة أيام.

وعلى الجانب الآخر ظهرت إشكالية ثانية وهي أن عددًا غير قليل ممن يريدون أن يتحولوا للمسيحية أرادوا أن يؤجلوا العماد حتى أواخر حياتهم؛ أي أن يظلوا موعوظين لفترة طويلة وغير محددة، ومن ثم يشاركون في كل أنشطة وفعاليات الكنيسة باستثناء قداس الإفخاريستيا.

وفي ضوء هذه الاعتبارات أقترح أن البناءين في البازيليكا المزدوجة كان كلاهما يقوم بوظيفة كنيسة كاملة بخاصة في الفترة الأولى من القرن الرابع الميلادي، حيث إن الموعوظين كان محظورًا عليهم فقط حضور قداس الشكر، ومن ثم كانوا ينسحبون فقط في هذا الوقت من الكنيسة، وفي نموذج أكويليا كان ينسحب الموعوظون وقت قداس الإفخاريستيا للصالة العرضية وهي كبيرة المساحة ومتصلة بالكنيستين معًا، ويتم الانسحاب إليها بسهولة، وفي نموذج ترير ينسحبون إلى الفناء الذي يتقدم الكنيسة جهة الغرب، وفي كنيستي جميلة فهناك مكان خاص بهم خارج الكنيستين ومتصل بالمعمودية ينسحبون إليه، وفي عين الجديدة كان التصميم رغم بساطته يعكس تخطيطًا رائعًا يعكس فكرة الاستخدام وتطور نظام الحركة من المكان العام فالمكان شبه الخاص فالمكان الخاص بشكل متطور، فالموعوظون ينسحبون من الكنيسة الجنوبية إلى القاعة الشمالية بيسر (أي إلى جزء من الكنيسة يساعد موقعه وتخطيطه على سهولة عزله)، والمدخل المتسع الرابط بين الكنيسة الجنوبية والقاعة الشمالية من المحتمل عزل المكانين بستارة قبل بنائه الذي عكس ضرورة وظيفية مستجدة.

ومع نفي استخدام واحدة من الكنيستين كمكان للموعوظين يظل السؤال مطروحًا ما الحاجة لكنيستين متجاورتين؟ وهل استخدامهما لغرض واحد أم غرضين مختلفين؟

وأرجح الرأي الذي اقترحه ليهمان Lehmann (طرح في مقالتين سنتي ١٩٥٨ [١٠٠]، ١٩٦٢م [١٠١]، وذكر تفسيره للوظيفة في الأخيرة) وهو أن كنيسة تستخدم للقداس اليومي "Community Church"، والثانية اقتصر استخدامها على الاحتفالات الرئيسية والأعياد الدينية المتصلة بوجود الأسقف إبرشية؛ "Parish Church" ، كما أن ليهمان يذكر هذا التفسير في سياق التغير الوظيفي للبازيليكا المزدوجة في الفترات المتأخرة، واستشهد على ذلك بواسطة نماذج كنائس تعود لفترة متأخرة.

ولذا فإن هذا التفسير الوظيفي والذي تتبناه هذه الدراسة جديد في طرحه لتفسير وظيفة البازيليكا المزدوجة المبكرة؛ متمثلاً في استخدام كنيسة كمقر للأسقف، وثانية للاستخدام اليومي. ويأتي هذا التفسير في ضوء ثقافة العصر والتي تعكس زيادة النفوذ الروحي والسياسي للأساقفة ودورهم البارز في هذه الفترة؛ فهم بمثابة نواب الإمبراطور إن جاز التعبير، وهم المسئولون بصفة رئيسية عن بناء الكنائس، ورعاية المسيحيين، والرعاية الاجتماعية والأنشطة الخدمية، واستقبال المتحولين الجدد والدخول عن طريقه للعقيدة الجديدة سواء كانوا فرادى أو جماعات، أو قادة ورؤساء لقبائل أو شعوب. وقد انعكس النفوذ المتعاظم للأسقف ودوره الرئيسي في الحياة السياسية والدينية على تكريس المبنى الثاني له في هذه الفترة المبكرة، وأن يكون وثيق الصلة كذلك بالكنيسة الاعتيادية. فنجد النماذج المبكرة تمثل كاتدرائيات المدن الكبرى في هذه الفترة مثل أكويليا وترببر وغيرها ما يدعم هذا التفسير لكونها كانت مقر الأسقفيات.

---

١٠٠ – أضاف ليهمان في هذه المقالة الأولى عددًا من المواقع الأثرية الألمانية لقائمة كنائس البازيليكا المزدوجة، انظر:
Edgar Lehmann, "Die frühchristlichen Kirchenfamilien der Bischofssitze im deutschen Raum, und ihre Wandlung während des Frühmittelalters", *Beiträge zur Kunstgeschichte und Archäologie des Frühmittelalters: Akten zum VII. Internationalen Kongress für Frühmittelalter forschung* (1958): 88-99.

١٠١ – يتناول ليهمان في هذه المقالة العمارة المسيحية المبكرة كمدخل لتطور العمارة وصولاً لعمارة الكنائس القوطية. وهو يقدم تفسيرًا مختلفًا لوظيفة المكان الثاني في الكنائس المزدوجة المبكرة؛ حيث يعتقد أنها تمثل كنيسة ملحق بها مكان للموعوظين؛ مدعمًا رأيه بتأثر البازيليكا المزدوجة في العمارة المسيحية المبكرة في القرن الرابع الميلادي بعمارة الكنيسة المنزلية دورا أوربوس؛ حيث يلحق بمكان التجمع الرئيسي (الكنيسة) مكان آخر للموعوظين متصل به معماريًا. بينما يطرح وظيفة الاستخدام ككنيستين للكنائس المتأخرة، انظر:
Edgar Lehmann, "Von Der Kirchenfamilie zur Kathedrale", *Festschrift Friedrich Gerke* (Baden-Baden: Holle-Verlag, 1962): 21-37.

وفي تحول جديد ومع استقرار الكيان المعماري للبازيليكا المزدوجة ككنيستين كاملتين متكافئتين في القدسية والعمارة، وبتطور السياق الديني للكنيسة تعددت الوظائف للبازيليكا المزدوجة؛ فنجد أيضًا في الفترة المبكرة خاصة في القرن الخامس الميلادي أصبح شائعًا تكريس واحدة من الكنيستين للشهداء والقديسين كموقع مقدس أو يحوي ذخائر مقدسة، وبالتوازي، أو تكرس للسيدة مريم العذراء.

ويجب تفسير ذلك في ضوء ثقافة العصر - كما سبق القول - حيث إن هذا التفسير لايمكن الأخذ به لكنائس أكويليا وترير وغيرهما من الكنائس المبكرة من القرن الرابع الميلادي على سبيل المثال؛ حيث إن التكريس للعذراء أو القديسين ظهر بعد مجْمع إفسوس سنة ٤٣١ م. وفي ضوء ذلك يذكر جان منيس G. Menis[١٠٢] متفقًا مع Zovatto في هذا الرأي أن البناء الثاني في البازيليكا المزدوجة لم يكن الأصل في وظيفته في العمارة المسيحية المبكرة كمشهد؛ للشهيد أو لجمع رفات أحد القديسين أو الشهداء والذي تكرس باسمه الكنيسة (أو البناء الثاني)، وإن هذا الاستخدام جاء في فترات لاحقة، حيث إن فكرة التكريس للعذراء أو القديسين لم تكن موجودة في القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الميلادي.

ولتوضيح تأثير سياق ثقافة العصر على التحول في الاستخدام الوظيفي للبازيليكا المزدوجة يجدر بنا تناول موضوع تقديس الشهداء[١٠٣] وآثارهم وتكريس بناء كنائس بأسمائهم.

سطر الشهداء تاريخهم بإيمانهم وتضحياتهم ودمائهم، فارتفعت مكانتهم وحظوا بالتبجيل وتخلد ذكرهم. وقبل السلام مع الكنيسة كان الاحتفاء بذكرى الشهداء وتبجيلهم يتم حول قبورهم مرتبطًا بتاريخ ذكرى استشهادهم. وأحيانًا تتميز قبورهم بتكوينات تذكارية خاصة، وقد تكون لها صفة معمارية مثل مصلى صغير أو زاوية "Memoria"، وهي تعكس تأثيرًا وثنيًّا لتقديس وعبادة الموتى بخاصة الصالحين منهم.

---

١٠٢ – Gian Carlo Menis, "La Basilica doppia", in *Rivista di archeologia cristiana*, vol. 40 (1964): 123-133.

١٠٣ – تناولت Henricks نشأة وتطور تقديس الشهداء وآثارهم المقدسة، للاستزادة، انظر:
Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 241-257.

وأصبح في الغرب ومع نهاية القرن الثالث الميلادي هناك تقويم ثابت للاحتفال بالشهداء مشتمل على الشهداء المحليين وعظام الشهداء والرسل على مستوى العالم المسيحي، وظل هذا التقويم مادة للإضافة والتوسع مع الوقت. وبعد السلام مع الكنيسة تحولت الزوايا التذكارية الرمزية الصغيرة عند مواقع قبور الشهداء إلى كنائس كبيرة وجديدة.

وتطور الاحتفال بموقع القبور، وعلى الرغم من أن الاحتفال بالشهداء كان عملاً تطوعيًّا، فإنه اكتسب شعبية كبيرة. وانعكس ذلك من تناقل سير الشهداء وتعاظم قدرهم في نفوس المسيحيين إلى الاعتقاد بقوة الشهداء، فزادت الرغبة في زيارة قبورهم والحج إليها والتبرك بها، بل وزاد الإقبال في الرغبة في الدفن بجوارهم أو بالقرب منهم.

ونتيجة الإقبال الشديد على هذه المواقع والتي اكتسبت قدسية خاصة تبلور مفهوم تقديس الشهداء؛ وكان الاهتمام في بداية المر مقتصرًا على مقر دفنهم؛ حيث عظامهم ورفاتهم، ثم تطور الأمر فزاد الاهتمام واتسعت دائرته ليشمل كل ما هو ذو صلة بهم ليشمل تذكارات، أو ملابس بها آثار من دمائهم، أو أي آثار أو بقايا من أدوات استشهادهم، أو حاجياتهم الخاصة، أو تلك التي قد يكونون استخدموها أو لمسوها في حياتهم أو عند استشهادهم. وفي هذا السياق أخذت آثار المسيح عليه السلام أهمية خاصة، وكذلك الرسل تلاميذ المسيح عليه السلام، والشخصيات التاريخية التي ارتبطت بحياة المسيح.

وبخصوص دفن الشهداء فثمة اختلاف في الممارسات بين الشرق والغرب، فنجد أنه في الغرب قد قام التقليد الروماني بحظر التلاعب بالقبور، وكان ذلك عاملاً مباشرًا على منع نقل الرفات أو الدخائر المقدسة، وهو الأمر الذي استمر حتى القرن السادس الميلادي، وأدى ذلك إلى إنشاء المزارات فوق القبور عند الجبانات أو المقابر، والصالات (البازيليكا) الجنائزية خارج أسوار المدن كما هو الحال في روما فترة القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين.

أما في الشرق فقد تطورت عادة نقل الذخائر المقدسة، فيمثل نقل رفات القديس بابيلاس أقدم مثال موثق، حيث نقل إلى ذافني (واحدة من مناطق أنطاكية) بين سنوات ٣٥١ -٣٥٤ م، وبعد ذلك بسنوات قليلة ٣٥٦ — ٣٥٧ م تم نقل ذخائر القديسين أندراوس، وتوما ولوقا إلى كنيسة الرسل المقدسة بالقنسطنطينية؛ وهو الأمر الذي أدى لانتشار هذا التقليد في نقل ذخائر القديسين، بل

وتطور الأمر إلى فصلها وتوزيعها بشكل أوسع حتى حرصت كل كنيسة تقريبًا على أن تضم جزءًا من الذخائر المقدسة لأحد الشهداء أو القديسين[١٠٤].

وفي الغرب انعكس ذلك الاهتمام المتزايد على كنائس أو أضرحة الشهداء (القريبة من المقابر خارج أسوار المدن) في المقابل على إهمال الكنائس والمراكز الكنسية داخل المدن؛ ما جعل الكنائس الغربية تضطر في نهاية الأمر للقبول بفكرة نقل رفات وآثار الشهداء المقدسة للكنائس داخل المدن، حتى تجذب الناس إليها، وكان ذلك بصورة رئيسية في القرن الخامس الميلادي.

وفي هذا السياق يمكن تفسير وظيفية الكنائس المزدوجة بصفة عامة، كون واحدة تستخدم ككنيسة شهيد "Martyrium" أو مكرسة للعذراء، كمكان أو موقع مقدس يحج إليه المسيحيون. وهذا التفسير مقبول على الكنائس المزدوجة لاسيما المؤرخة من القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين.

وعن الاستخدامات الوظيفية الأخرى والتي ارتبطت بصورة أكبر بالكنائس المتأخرة نجد الاستخدام الموسمي (الصيف والشتاء) كما في كنائس لومبارديا[١٠٥]. ومثل هذا الاستخدام يتطلب عاملين يتباين على أساسهما اختلاف الاستخدام بين كلٍّ من البناءين؛ العامل الأول: المساحة بحيث يكون البناء المستخدم في الشتاء أصغر مساحة ليسهل تدفئته، والعامل الثاني: التوجيه بحيث يوجه البناء الأصغر مساحة باتجاه الجنوب، بينما يوجه البناء الصيفي وهو الأكبر مساحة باتجاه الشمال. ومثل هذه الأبنية يمكن تتبعها في العمارة الكلاسيكية وفي العمارة المسيحية المبكرة على السواء.

وهناك كنائس بازيليكية مزدوجة نتيجة إضافة كنيسة ثانية لكنيسة باقية بالفعل في موقع أسقفي[١٠٦]،

١٠٤– مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٤٤.

١٠٥– Menis, *La Basilica doppia*: 129-133.

١٠٦– Jean Hubert, *L’Art Préromane* (Paris,1938); Henricks, *The Early Christian Double-Basilica*: 19-20. في ضوء عقده لمقارنة بين الكنائس البازيليكية المزدوجة في كلٍّ من شمال وجنوب أوروبا، يذكر أن الكنائس المزدوجة الإيطالية بنيت من الأساس كوحدة معمارية واحدة على العكس من الكنائس المزدوجة في فرنسا (باستثناء كنيسة تريير Trier) حيث أضيفت كنيسة ثانية لكنيسة باقية بالفعل في موقع أسقفي. وأن الكنائس الإيطالية مبكرة في تاريخها عن الفرنسية. وأضاف عددًا من الكنائس لقائمة الكنائس البازيليكية المزدوجة.

مثل الكنائس المزدوجة في فرنسا باستثناء كنيسة تريير Trier كما يذكر هيبير Hubert؛ في دراسته للكنائس البازيليكية المزدوجة في فرنسا[١٠٧]، والتي تناول فيها الكنائس البازيليكية المزدوجة كمدخل لدراسة العمارة الموروفينيجية[١٠٨].

وجدير بالذكر أن يؤخذ في الاعتبار أنه رغم توحد المعتقد والمذهب «عالمية» المسيحية في الفترة المتزامنة مع العمارة المسيحية المبكرة بخاصة القرن الرابع الميلادي وبداية القرن الخامس؛ فهناك حلول معمارية مختلفة لمعالجة الاحتياجات الطقسية والاحتفالات المنبثقة من اختلاف الموروث المحلي، ومستجدات السياق الثقافي والديني بصفة رئيسية. وأيضًا قد يستعار شكل معماري ما لم يكن يستخدم لأغراض وظيفية مختلفة بحسب رؤية المستخدم الجديد لمدى تواؤمها واحتياجاته.

البازيليكا الجنائزية (الصالات الجنائزية المغطاة)

"The Cemetery Basilica، The Covered Cemetery"

البازيليكا الجنائزية[١٠٩] تمثل طرازًا لمبانٍ بازيليكية التخطيط وجدت في روما على وجه الخصوص كما تدل النماذج المعروفة منها حتى الآن، مؤرخة بالفترة المبكرة من القرن الرابع الميلادي عصر أسرة الإمبراطور قنسطنطين، وتقع خارج أسوار مدينة روما حيث تقع كل بازيليكا بالقرب من جبانة سواء كانت مكشوفة أو في باطن الأرض (كتاكومب).

ولم تشيد هذه المباني البازيليكية ككنائس تقليدية تقام فيها صلوات يوم الأحد والصلوات اليومية؛ ولكنها أنشئت كصالات جنائزية أو جبانات مغطاة. ويؤكد ذلك توجيهها؛ حيث إنها غير موجهة جهة الشرق لكن على العكس مدخلها هو بالجهة الشرقية، ولم يمنع ذلك أن يستخدمها سكان الأحياء المحيطة بالجبانات خارج المدينة حتى اكتسبت مع الوقت سمات ووظائف الكنائس

١٠٧- Jean Hubert, "Les cathédrales doubles de la Gaule", *Mélanges d'histoire et d'archéologie offerts en hommage à M. Louis Blondel*, Genève, nouv. série, t. XI (1963): 105-125, fig. 8.

١٠٨- العمارة الموروفينجية Merovingian Architecture هو الفن والعمارة في عهد الأسرة الموروفينجية والتي حكمت فرنسا ودول البنلوكس (أو بلاد الأراضي المنخفضة هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ) وجزءًا من ألمانيا في الفترة من القرن الخامس الميلادي حتى القرن الثامن الميلادي.

١٠٩- Gregory T. Armstrong, "Constantine's Churches: Symbol and Structure", *Journal of the Society of Architectural Historians* 33, no. 1 (Mar 1974): 9-11.

التقليدية بخاصة من قبل هؤلاء السكان[110]. وفي الأغلب أنشئت كنائس تقليدية لاحقًا في القرن السابع الميلادي بجوار هذه الصالات الجنائزية وحملت نفس أسماء القديسين المكرسة لهم كذلك (مثل كنيسة القديسة أغنيس).

وهذه المباني البازيليكية الجنائزية بنيت بجوار مواقع مقدسة أو بجوار مقبرة أحد الرسل أو الشهداء العظام وذلك بالقرب من جبانة مجاورة سواء كانت في باطن الأرض أو مكشوفة؛ لتعكس الرغبة القوية كاختيار مفضل للرومان المسيحيين كأماكن للدفن في القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين، وذلك لاقترانها بمواقع قبور الشهداء.

كانت العادة آنذاك أن الاحتفال بالذكرى السنوية لاستشهاد أحد الرسل أو الشهداء يتم حول مقبرة الشهيد مرتبطًا بقداس وصلوات ووجبات جماعية. والاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة المسيحيين العاديين أيضًا يكون عشية الذكرى السنوية ومصحوبًا بمأدبة جماعية."Banquet" وفي هذا السياق يمكن أن تمثل المباني البازيليكية المغطاة صالات للاحتفال بهذه الذكرى والولائم الجنائزية الجماعية، وأيضًا كجبانة لدفن الذين يرغبون ويحبون أن يدفنوا قرب مواقع مقابر الشهداء. وهذه العادات وتقاليد الاحتفال بالذكرى السنوية للأموات ومراسمها لها صدى في العادات الوثنية، والتي استمرت بصورة ما في الغرب والشرق على السواء، وقد حاول التصدي لها في فترة لاحقة الأسقفان أمبروز وأوجستين لكونها عادات وثنية قديمة. وهجرت الوجبات الجماعية الجنائزية في فترة متأخرة القرنين السادس والسابع الميلاديَّين.

والبازيليكا الجنائزية ككيان معماري تأخذ في تخطيطها العام شكل حرف U (أشكال ٨٨ – ٩٢) ؛ وتتميز عن البازيليكا التقليدية بأن البلاطة الجانبية "Aisle" تستمر في الجهة الغربية لتلتقي مع البلاطة الجانبية المناظرة لها بالجهة الأخرى في تخطيط نصف دائري تقريبًا في نهايتها مكونة ممشى مسقوفًا نصف دائري "Ambulatory"، ما يكسب التخطيط الشكل المميز له أي شكل حرف U كما سبق القول. وهذا التخطيط يعطي البازيليكا شكل الحنية نصف مستديرة المسقط بالجهة الغربية ما يميزها كذلك عن البازيليكا التقليدية[111].

١١٠– Krautheimer, *Early Christian*: 51- 54, esp. 52.

١١١– Armstrong, *Constantine's Churches*: 9-10.

ويمثل الضريح الملحق بالبازيليكا أو المجاور لها، ملمحًا ثالثًا يميز البازيليكا الجنائزية عن الكنيسة، وكذلك وجودها بجوار جبانة أو مقبرة جماعية "Catacomb"، وذلك في الفترة المبكرة، حيث تم السماح ببناء كنائس تقليدية بهذه المواقع في القرنين السادس والسابع الميلاديَّين.

وهناك ملمحان غير ظاهرين في معظم الرسوم يميزان البازيليكا الجنائزية، وهما أولاً: القبور التي تملأ باطن أرضية البازيليكا بكامل مساحتها الداخلية، وقد تكون في أكثر من طبقة. وثانيًا: موقع البازيليكا خارج أسوار المدينة.

وجدير بالذكر أن هذا النوع من المباني، أي البازيليكا الجنائزية، يعتبر تخطيطًا غير تقليدي في العمارة المسيحية المبكرة؛ حيث تمثل شكلاً معماريًّا متطورًا استخدم لغرض وظيفي جديد. فتخطيط البازيليكا الجنائزية دمج بين شكلين معماريين لأول مرة؛ وهما البازيليكا والممر المسقوف (نصف دائري المسقط أو على شكل حدوة فرس) في بناء جديد، وذلك على الرغم من أن كلاًّ منهما كان معروفًا على حدة في العمارة الرومانية المدنية والجنائزية على الترتيب. كما يمثل استخدام البازيليكا في العمارة الجنائزية ملمحًا معماريًّا – وظيفيًّا جديدًا[١١٢].

وفيما عدا هذه الملامح المعمارية والوظيفية التي تميز البازيليكا الجنائزية، فتخطيطها العام وبقية عناصرها المعمارية لا تختلف عن البازيليكا التقليدية، فتقسم من الداخل إلى رواق أوسط وبلاطات جانبية بواسطة بائكتين من عقود أو أعمدة تحمل عقودًا تحمل بدورها سقف الرواق الأوسط المرتفع عن أسقف البلاطات الجانبية مكوِّنًا فرق المنسوب، والذي يشغله نوافذ لإضاءة البازيليكا من الداخل.

وتوجد بروما أربعة نماذج لهذا النوع من البازيليكا الجنائزية وهي: بازيليكا القديس سباستيان (الرسل) في روما (نحو ٣١٢ – ٣١٣ م وحتى ٣٤٠ م)، وبازيليكا القديسين مارسيلينوس وبطرس في روما (نحو سنة ٣٢٠ م، ملحق بها ضريح هيلينا والدة قنسطنطين)، وبازيليكا القديس لورنس في روما (نحو سنة ٣٢٦ – ٣٣٠ م)، وبازيليكا القديسة أغنيس في روما (نحو سنة ٣٣٨ – ٣٥٣ م، ملحق بها ضريح كوستانزا).

وتمثل بازيليكا القديس سباستيان (الرسل) على طريق أبيا "Appia" بروما، فضلاً عن أنها أقدم نموذج معروف لهذا النمط من البازيليكا الجنائزية، نموذجًا متمايزًا عن النماذج الثلاثة الأخرى، حيث

١١٢- *Ibid.*: 9.

تتميز بأن مقبرة وضريح القديس سباستيان (والذي يمثل الشهيد الرئيسي للبازيليكا) يقعان مباشرة أسفل الرواق الأوسط (صحن الكنيسة) وليسا ملحقين أو مجاورين للبناء كما في النماذج الأخرى.

ويذكر أن بازيليكا القديس سباستيان (الرسل[١١٣]) كانت تحتوي على الآثار المقدسة لبطرس وبولس؛ والتي أودعت هناك وفقًا للرواية فترة الاضطهاد في القرن الثالث الميلادي، وأنها أعيدت لاحقًا للبازيلكتين اللتين تحملان اسميهما، لذا فإن اسمها الأول ببازيليكا الرسل نسبة إليهما، وإن تكريسها باسم القديس سباستيان جاء في فترة لاحقة.

وبازيليكا سباستيان (شكل ٨٨) بدأ العمل بها نحو ٣١٢ – ٣١٣ م، واكتمل بناؤها نحو سنة ٣٣٧ م، وأبعادها ٣٠,٥ × ٧٣,٥ مترًا[١١٤].

النموذج الثاني يمثل بازيليكا القديسين مارسيلينوس (كان أسقف روما ٢٩٦ م، واستشهد سنة ٣٠٤ م) وبطرس على طريق لابيكانا القديم (طريق كاسيلينا حاليًا) والذي يوصل لشرق وجنوب شرق روما، وقد أنشئت هذه البازيليكا على موقع كانت به مبانٍ إمبراطورية قديمة، وقريب من جبانة (كتاكومب).

البازيليكا (٦٥ × ٢٩ مترًا) أصغر قليلاً من بازيليكا سباستيان، ومقسمة من الداخل إلى صحن الكنيسة والبلاطات الجانبية بواسطة بوائك من دعامات تحمل عقودًا (شكل ٨٩)، ويرتكز على الأخيرة سقف الرواق الأوسط المرتفع عن أسقف البلاطات الجانبية، مكوِّنًا ما يعرف بفرق المنسوب "Clesteroy"، حيث يوجد به صف من النوافذ لإضاءة البازيليكا من الداخل[١١٥].

وتعكس هذه البازليكا تعاظم الرغبة المتزايدة للدفن قرب مواقع قبور الشهداء، فكامل أسفل مساحة أرضيات البازيليكا مشغولة بالمقابر. وملحق بالبازيليكا ضريح تذكاري يعرف بضريح هيلينا[١١٦] والدة

١١٣- Hans Lietzmann, "The Tomb of the Apostles Ad Catacumbas", *The Harvard Theological Review* 16, no. 2 (Apr 1923): 147-162.

١١٤- Krautheimer, *Early Christian*: 52.

١١٥- Armstrong, *Constantine's Churches*: 10.

١١٦- Mark J. Johnson, "Where Were Constantius I and Helena Buried ?", *Latomus* 51, Fasc. 1 (Janvier-Mars 1992): 147-150.

الإمبراطور قنسطنطين (أشكال ٩٣ – ٩٤). وإن لم تدفن هيلينا في حقيقة الأمر في هذا الضريح. واستنادًا لبعض التفاصيل خاصة التابوت من الرخام السماقي المحفوظ بمتحف الفاتيكان (شكل ٩٥، ٩٦)، والذي يمثل تحفة فنية في ذاته خاصة منظر المحاربين والمعركة؛ يرجح البعض أن الإمبراطور قنسطنطين كان قد شيد هذا الضريح لنفسه حتى يكون مثواه هو في حقيقة الأمر، ولكن تغير هذا المقصد أغلب الظن بعد مغادرة الإمبراطور قنسطنطين روما سنة ٣٢٦ م، وإنشائه لعاصمة إمبراطورية جديدة. وقد استخدم هذا التابوت للبابا أناستاسيوس الرابع في القرن الثاني عشر الميلادي[١١٧].

ويمثل ضريح هيلينا نموذجًا للتخطيط المركزي والذي يمثل نمطًا معماريًّا متمايزًا عن البازيليكا، وسنشير إليه في المباني مركزية التخطيط. ولكن يجدر الإشارة إلى أن أسرة الإمبراطور قنسطنطين اكتسبت مكانة مرموقة وتبجيلاً من المجتمعات المسيحية، فأصبحت هيلينا والدة قنسطنطين القديسة هيلينا أو إيلينا، وكذلك قنسطنطينا ابنة الإمبراطور قنسطنطين أصبحت القديسة كوستانزا.

يمثل النموذج الثالث للبازيليكا الجنائزية بازيليكا القديس لورنس (المعروف بحامل إكليل الغار)، وهي مؤرخة بالفترة بين سنوات (٣٢٦ – ٣٣٠ م)، وتم الكشف عن هذه البازيليكا عن طريق الصدفة سنة ١٩٥٧م. ومساحتها كبيرة نسبيًّا فأبعادها ٣٢ × ١٠٠ متر[١١٨] (شكل ٩٠ – ٩١). وأسفل أرضية بازيليكا لورنس وجدت ثلاثة مستويات أو طبقات من المقابر. وملحق بالبازيليكا العديد من الأضرحة والزوايا الصغيرة[١١٩]. وشيدت كنيسة كذلك باسم القديس لورنس شمال هذه البازيليكا في فترة متأخرة.

النموذج الرابع هو بازيليكا القديسة أغنيس Agnes وتقع بالقرب من جبانة (كتاكومب) وتعود للقرن الرابع الميلادي. وبازيليكا أغنيس أبعادها ٩٧ × ٤٠ مترًا[١٢٠] (شكل ٩٢) مؤرخة بالفترة نحو

١١٧- Armstrong, *Constantine's Churches*: 10.

١١٨- *Ibid*.

١١٩- R. Krautheimer, E. Josi and W. Frankl, "S. Lorenzo Fuori Le Mura in Rome: Excavations and Observations", *Proceedings of the American Philosophical Society* 96, no. 1 (Feb 29, 1952): 1-26.

١٢٠- Armstrong, *Constantine's Churches*: 11.

٣٣٨ – ٣٥٣م[١٢١]، وتم فرش أرضية البازيليكا بالكامل بالمقابر، وأحيانًا كانت توجد في مستويين. وملحق ببازيليكا القديسة أغنيس Agnes ضريح القديسة كوستانزا[١٢٢] (قنسطنطينا ابنة الإمبراطور قنسطنطين)، وهو يمثل نموذجًا رائعًا لعمارة المباني مركزية التخطيط في القرن الرابع الميلادي (شكل ٩٧).

المباني ذات التخطيط المركزي (Τα περίκεντρα κτίρια ; Central Building)

هناك طراز ثانٍ رئيسي في تخطيط العمائر المسيحية المبكرة إلى جانب البازيليكا، وهو طراز المباني ذات التخطيط المركزي. ولم ينتشر هذا التخطيط مثلما انتشر التخطيط البازيليكي، وقد اندرج تحت هذا الطراز من التخطيط الكنائس، والأضرحة التذكارية، وكنائس الشهداء (المباني التي يُحج إليها)، والمعموديات.

عرف التخطيط المركزي في العمارة الرومانية لتلبية أغراض وظيفية متباينة، فنجده في المنشآت المدنية والجنائزية والدينية؛ فالتخطيط المركزي يمكن تتبعه في قاعات الحمامات الرومانية منذ القرن الأول قبل الميلاد، ووجد في قاعات الاستقبال بالقصور الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي، واستخدم كذلك لأغراض وظيفية أخرى فنجد البانثيون في روما يمثل منشأة دينية، والذي تحول لكنيسة مسيحية في القرن السابع الميلادي. وأضيف إليه مذبح كرس للسيدة مريم العذراء وجميع القديسين والشهداء. ومع بدايات القرن الثالث الميلادي اسُتخدم كضريح تذكاري واكتسب الشكل المعماري مع هذه الوظيفة رمزية خاصة إشارة إلى العالم السماوي، وأغلب الظن أن العمارة المسيحية المبكرة أقرت هذا التخطيط وفق المعنى الوظيفي الأخير وتبنته في تخطيط المعموديات وأضرحة الشهداء[١٢٣].

١٢١- Gregory T. Armstrong, "Constantine's Churches", *Gesta* 6 (Jan 1967): 7.

١٢٢- W. E. Kleinbauer, "Antioch, Jerusalem, and Rome: The Patronage of Emperor Constantius II and Architectural Invention", *Gesta* 45, no. *2, 50th Anniversary of the International Center of Medieval Art* (2006): 125-145, esp. 131-138.

١٢٣- J. B. Ward-Perkins, "Imperial Mausolea and Their Possible Influence on Early Christian Central-Plan Buildings", *Journal of the Society of Architectural Historians* 25, no. 4 (Dec 1966): 297-299; Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 47.

في المباني مركزية التخطيط يكون محور البناء المساحة المركزية (عادة مغطاة بقبة) حيث تنتظم بقية الفراغات أو العناصر حوله في سيمترية، وذلك على عكس التخطيط البازيليكي حيث يمثل المحور الطولي لها باتجاه الحنية محور البناء وبؤرة التخطيط.

وهذا التخطيط المركزي يعبر بصورة أفضل عن التصور الكوني للمسيحية[١٢٤]؛ حيث ينظر إلى الكنيسة كصورة مصغرة للكون، وكصورة حية مرئية لانتصار المسيح، وقوته ووجوده الدائم على الأرض. ودلالة التغطية بالقباب (أو بالقباب والأقبية معًا) تمثل تأويلاً رمزيًا لهذا المفهوم للعالم الكوني، وانعكست هذه الرمزية على برنامج التصوير للقباب في العمارة البيزنطية بصفة خاصة في الفترات اللاحقة.

وربما يمثل التخطيط المركزي حلاً معماريًا نموذجيًا للعمارة الجنائزية التذكارية أو لكنيسة الشهيد حيث يكون الضريح أو الذخائر المقدسة للرسول أو الشهيد في مركز البناء، وتنتظم حوله بقية الفراغات، ويساعد التخطيط المركزي على توفير مساحة متسعة حول التابوت أو التركيبة للطواف حولها والحج إليها[١٢٥].

وأبرز الأضرحة التذكارية ذات التخطيط المركزي ضريحا هيلينا وكوستانزا بروما واللذان يعكسان استمرارية مدرسة العمارة الرومانية. ضريح هيلينا والدة الإمبراطور قنسطنطين والملحق ببازيليكا القديسين مارسيلينوس وبطرس الجنائزية، وهو كما سبق القول كان معدًا للإمبراطور قنسطنطين نفسه، ولكن لم يدفن به ولا حتى والدته هيلينا (توفيت ٣٢٨ م). والضريح لايزال جزءًا كبيرًا منه قائما إلى اليوم (أشكال ٩٣ – ٩٤). وهو بناء مستدير المسقط من طابقين مبنيّ من الآجر. الطابق الأرضي يأخذ شكلاً مثمنًا من الداخل؛ حيث توجد ثماني دخلات عميقة أربع دخلات ذات مسقط مستطيل تتناوب مع مثلها لكن ذات مسقط نصف مستدير. واحدة من الدخلات العميقة مستطيلة المسقط تستخدم كمدخل للضريح، والدخلة التي تقابلها وهي مستطيلة كذلك كان يوجد بها التابوت المصنوع من الرخام السماقي (شكل ٩٥) والمحفوظ بمتحف الفاتيكان كما سبق القول. بالطابق الثاني وعلى نفس المحور الطولي للدخلات بالطابق الأرضي توجد نوافذ كبيرة معقودة

١٢٤- *Ibid.*: 47.

١٢٥- Armstrong, *Constantine's Churches*: 10.

لإضاءة القبة من الداخل. والطابق الثاني أسطواني (قطره من الداخل ٢٠,١٨ مترًا، ومن الخارج ٢٧,٧٤ مترًا)، وكان يغطي البناء في الغالب إما قبة أو شكل مخروطي[١٢٦].

والنموذج الثاني يمثل ضريح القديسة كوستانزا (قنسطنطينا ابنة الإمبراطور قنسطنطين) الملحق ببازيليكا القديسة أغنيس "Agnes" نحو ٣٣٨ – ٣٥٣ م، وهو يمثل كما سبق القول نموذجًا رائعًا لعمارة المباني مركزية التخطيط في القرن الرابع الميلادي. توفيت كوستانزا سنة ٣٥٤ م، وأثبتت الحفائر أن المبنى الحالي يقوم أعلى مبنى مسيحي قديم، وأن البناء الحالي مؤرخ بنحو سنة ٣٥٠ م. ودفنت أيضًا في هذا البناء هيلينا (توفيت سنة ٣٦٠ م) ابنة الإمبراطور قنسطنطين أيضًا وأخت كوستانزا وزوجة الإمبراطور جوليان، ومن المرجح أن هذا البناء تم في فترة حكم جوليان[١٢٧].

البناء من الآخر مركزي التخطيط[١٢٨] (أشكال ٩٧ – ٩٩) وصمم ليكون مركزه وبؤرة بنائه مكان التابوت الحجري لكوستانزا (شكل ١٠١). وهو مبنى مستدير المسقط (قطر المبنى من الخارج شامل مع الجدران ٣٠,٤٨ مترًا، ومن الداخل ٢٢,٥ مترًا). ويكون في مركز البناء من الداخل دائرة أخرى (بقطر ١٠,٦٧ أمتار من الداخل) بواسطة بائكة مستديرة من اثني عشر عمودًا مزدوجًا تحمل اثني عشر عقدًا (شكل ٩٩) يرتكز عليها رقبة القبة ومفتوح بها اثنتا عشرة نافذة كبيرة معقودة تضيء الداخل، وهذه المساحة المركزية مغطاة بقبة. والمساحة الدائرية المحصورة بين الجدران الخارجية والبائكة الداخلة تمثل ممشى مسقوفًا دائري المسقط "Ambulatory"، وسقف هذا الممشى يمثل قبوًا أسطوانيًا (شكل ١٠٠) مزينًا بالفسيفساء ذات الزخارف النباتية، والتي تمثل نماذج مهمة للفن المسيحي المبكر[١٢٩].

١٢٦– Cutts, *History of Early Christian:* 133.

١٢٧– Armstrong, *Constantine's Churches*: 10.

١٢٨– W. E. Kleinbauer, "The Double-Shell Tetraconch Building at Perge in Pamphylia and the Origin of the Architectural Genus", *Dumbarton Oaks Papers 41, Studies on Art and Archeology in Honor of Ernst Kitzinger on His Seventy-Fifth Birthday* (1987): 277-293, esp. 290-291.

١٢٩– Henri Stern, "Les mosaïques de l'église de Sainte-Constance à Rome", *Dumbarton Oaks Papers* 12 (1958): 157+159-218.

بمركز الضريح توجد منصة كان يوجد عليها حشوة حجرية كبيرة ومن المفترض أن التابوت الحجري لكونستانزا كان يوضع في هذا المكان. وجد في الضريح تابوتان رخاميان لكوستانزا وأختها هيلينا؛ التابوت الأكبر على عكس المتوقع يخص هيلينا وقد نقل لمتحف الفاتيكان، والتابوت الأصغر كان يوجد في الدخلة مقابل مدخل الضريح وهو تابوت من الرخام السماقي وهو الخاص بكوستانزا (شكل ١٠١)، وقد نقل لكنيسة القديس بطرس بالفاتيكان[١٣٠].

ويوجد أيضًا غير هذين النموذجين عدد من الأضرحة وكنائس الشهداء مركزية التخطيط فيمثل ضريح دقلديانوس، والذي كان ملحقًا بقصره (شكل ١٠٢) بدالماتيا (حاليًا قرب مدينة سولين بكرواتيا)، نموذجًا معماريًا رائعًا لعمارة الأضرحة التذكارية مركزية التخطيط[١٣١] في نهايات القرن الثالث الميلادي (شكل ١٠٣)، ويشكل جزءًا من كتدرائية القديس دومنيوس بمدينة سبليت الكرواتية Split. ونفس الشيء للضريح التذكاري الفخم دائري المسقط والذي كان ملحقًا بقصر جاليريوس في مدينة ثيسالونيكي، والذي حوله ثيودسيوس الأول إلى كنيسة "روتندا" باسم القديس جورج (شكل ١٠٤ – ١٠٧). ونجد في كبدودكيا في الأناضول ضريح نيسا "Nyssa" والمؤرخ بسنة ٣٧٠ م (شكل ١٠٨)، وضريح أو كنيسة شهيد نازيانزوس والتي بناها الأسقف جريجورى في كبدودكيا أيضًا نحو منتصف القرن الرابع الميلادي[١٣٢].

وأتفق مع رأي مانجو في أن تخطيط المباني المركزية متأثر بتخطيط الأجزاء المعمارية الفخمة الملحقة أو ضمن القصور الرومانية، سواء كانت قاعات استقبال أو أضرحة تذكارية فخمة، فقاعات الاستقبال المركزية ذات التخطيط الدائري، والمثمن، أو ثلاثي الحنايا كانت ظاهرة مألوفة في عمارة القصور الرومانية. ويدعم هذا الرأي أن كثيرًا من هذه القاعات أو الأجزاء المعمارية الملحقة بالقصور الرومانية قد حولت لكنائس وصارت نماذج معمارية أولية لهذا التخطيط. ومن النماذج الرومانية بيت أوريا Domus Aurea الذي بناه الإمبراطور نيرو في روما، وقصر جاليريوس في ثيسالونيكى والذي تمثل روتُندا القديس جورج جزءًا منه، وفي القنسطنطينية قصر أنطيوخوس الذي يعود لبداية القرن الخامس الميلادي، وقاعته المركزية كانت سداسية الشكل ذات حنايا (شكل ١٠٩)، وحولت إلى

١٣٠– Armstrong, *Constantine's Churches*: 10.

١٣١– Krautheimer, *Early Christian*: 51-54.

١٣٢– مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٥٣-٥٧.

ضريح للقديس إيوفيميا[١٣٣]، وقصر قنسطنطين ضم كذلك قاعة مثمنة، وعندما أضيفت للقصر الإمبراطوري في القنسطنطينية في القرن السادس الميلادي قاعة احتفالية جديدة – القاعة الذهبية – صممت على شكل مثمن مقبب[١٣٤] يشبه مخطط كنيسة القديس ڤيتاله في راڤينا St. Vitale.

لم تقتصر المباني مركزية التخطيط على كنائس الشهداء بل كانت كذلك كنائس تقليدية لتجمع المصلين الاعتيادي. حيث إن الكنيسة مركزية التخطيط وجدت جنبًا إلى جنب مع الكنيسة البازيليكية منذ عصر قنسطنطين، وليس تطورًا لعمارة البازيليكا بهدف استبدالها.

وإذا كان يمكن تفسير أفضلية استخدام التخطيط المركزي لكنائس الشهداء وظيفيًا؛ فإن الأمر يمثل إشكالية بالنسبة لمعايير اختيار أو تفضيل الشكل المعماري ذي التخطيط المركزي ككنيسة تقليدية أو كاتدرائية. هل هي رغبة إمبراطورية في نشر هذا التخطيط بطريقة مركزية؟ أم أن الأمر له علاقة بانتشار طراز معين من قبيل الطراز السائد «الموضة المعمارية» إذا جاز التعبير؟

ومن أمثلة الكنائس مركزية التخطيط فإن كاتدرائية أنطاكية التي بناها الإمبراطور قنسطنطين والتي وصفها يوسيبيوس كانت مثمنة الشكل، وهناك رأي يرجح أن مبنى نازيانزوس المثمن المنسوب بناؤه للأسقف جريجوري في كبدودكيا (منتصف القرن الرابع الميلادي) كنيسة تقليدية وليست كنيسة شهيد[١٣٥]. وكاتدرائية بصرى[١٣٦] (٥١٢ م)، والتي كان جزء كبير منها لا يزال قائمًا حتى نهايات القرن التاسع عشر الميلادي (شكل ١١٠)، تمثل مخططًا دائريًا داخل مربع (قطرها ٣٦ مترًا)، تبرز الحنية والغرفتان الجانبيتان من الشرق (شكل ١١١ – ١١٢)، وللكنيسة مخطط رباعي الحنايا، ويتشكل من أربعة أعمدة تتبادل مع قواعد على شكل حرف L، والأعمدة والقواعد معًا كانت تحمل قبة مخروطية بقطر ١٢ مترًا. والجزء الدائري كان كذلك حنايا في الزوايا على شكل حدوة الفرس،

١٣٣– Krautheimer, *Early Christian*: 71.

١٣٤– مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٥٤.

١٣٥– المرجع السابق.

١٣٦– W. Smith and S. Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 372; مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٥٤–٥٥.

وكان يضاء بمجموعة نوافذ بمنطقة انتقال القبة. وتوجد كنيسة مشابهة في مدينة الرصافة ذات مخطط رباعي الحنايا (شكل ١١٨)، كانت مرتبطة بقصر الأسقف.

وفي روما نجد بعض المباني مركزية التخطيط كانت مغطاة على عكس المتوقع أو المألوف بأسقف خشبية وليست قبابًا. وتمثل روتندا القديس ستيفانو[١٣٧] (شكل ١١٣ – ١١٥) بروما نموذجًا مهمًّا لهذه المباني، وهي مؤرخة بالفترة ٤٦٧ – ٤٨٨ م. وفي هذه الروتندا كان يحف بالمساحة المركزية محور البناء ثلاث بلاطات مستديرة "Ambulatories"، الوسطى منها تمثل كتلة بنائية مستديرة؛ فيوجد بها بالمحارو الرئيسية الأربعة أربع زوايا صغيرة متماثلة مكوِّنة شكل صليب يوناني، وهذه الروتندا ذات مساحة كبيرة فقطر دائرتها نحو ٦٦ مترًا.

وتمثل هذه الروتندا نموذجًا متطورًا لعمارة المباني مركزية التخطيط في القرن الخامس الميلادي؛ فهي تأخذ مسقطًا مستديرًا من الداخل، وشكلاً صليبيًّا للتسقيف من الداخل. وتتكون الروتندا من ثلاث دوائر تستدق في القطر باتجاه المركز، المسقط الخارجي بقطر ٦٦ مترًا، والدائرة الداخلية بقطر ٤٢ مترًا.

يحدد المساحة الداخلية ٢٢ عمودًا أيونيًّا بشكل دائرة، ويعلو المساحة المركزية رقبة أسطوانية ذات أبعاد مربعة فقطرها ٢٢ مترًا وكذلك ارتفاعها ٢٢ مترًا، ويفتح بها ٢٢ نافذة لإضاءة الداخل، ومعظم هذه النوافذ تم سدها في الترميم الذي تم في القرن الخامس عشر الميلادي.

وتمثل كنيسة القديس لورنزو[١٣٨] بميلانو أوائل القرن الخامس الميلادي، وكانت تمثل كاتدرائية المدينة، نموذجًا معماريًّا مهمًّا للمباني مركزية التخطيط؛ حيث تجمع في تخطيطها بين المسقطين الدائري والمربع (شكل ١١٦). فالكنيسة تمثل مبنىً مركزيًّا رباعي الحنايا؛ يتكون من مربعين داخليين: المربع المركزي يحصر بينه وبين المربع الخارجي ممشى مسقوف"Ambualtory". وتمثل الحنايا الأربع التي تكسب

١٣٧- W. Smith and S. Cheetham, eds., *A Dictionary of Christian Antiquities*, vol. 1: 373; Kleinbauer, *The Double-Shell Tetraconch Building*: 287-289; Krautheimer, *Early Christian*: 90-92.

١٣٨- Krautheimer, *Early Christian*: 78-81; 373 Kleinbauer, *The Double-Shell Tetraconch Building:* 287-289 Dale Kinney, "The Evidence for the Dating of S. Lorenzo in Milan", *Journal of the Society of Architectural Historians* 31, no. 2 (May 1972): 92-107.

التخطيط شكلاً مميزًا دخلات ضخمة عميقة معقودة بارتفاع طابقين (شكل ١١٧)؛ وتفتح على كل من الطابقين ببائكة خماسية، السفلية تحمل إفريزًا أفقيًّا، والعلوية تحمل خمسة عقود، والشرفة كانت تستخدم كمصلى للنساء. القبة التي كانت تغطي المساحة المركزية أعيد بناؤها وفق طراز الباروك بعد سقوط القبة الأصلية.

والشكل المركزي (قطر ٢٣,٨٠ مترًا) الناتج عن هذه الحنايا يمثل مثمنًا كانت ترتكز عليه رقبة أسطوانية استبدلت في القرن السادس عشر الميلادي بالرقبة المثمنة الحالية. وزخارف الكنيسة توحي بالفخامة من الداخل. وملحق بالكنيسة مصليات ذات زخارف فسيفساء ثرية تمثل نموذجًا رائعًا لفسيفساء القرن الخامس الميلادي.

وتوجد العديد من الأمثلة للمباني مركزية التخطيط في أقاليم الإمبراطورية الرومانية تعود لفترة البحث (حتى الربع الثاني من القرن السادس الميلادي)، ومنها نماذج ذات أهمية تاريخية وقيمة معمارية عالية في سوريا[١٣٩] (شكل ١١٨). وتوجت نماذج هذا التخطيط في عمارة الكنائس بكنيستي القديسين سرجيوس وباخوس[١٤٠] (٥٢٧ – ٥٣٦ م) في القنسطنطينية (شكل ١٢٠ - ١٢١)، والقديس فيتاله[١٤١] (٥٢١ – ٥٣٢ م) في رافينا (شكل ١١٩).

المباني مركزية التخطيط تعكس ملامح محلية وتطورًا معماريًّا مستمرًّا ورغبة في إظهار الفخامة أكثر منها وظيفة؛ أي أن العمارة المسيحية خاصة الكنائس في العواصم الرومانية تستخدم اللغة التعبيرية للدلالة على القوة والمكانة أكثر من الناحية الوظيفية.

ومن ثم فاستنادًا إلى ذلك تمثل المباني مركزية التخطيط فضلاً عن رمزية التخطيط إنجازًا معماريًّا ذا بصمة في تاريخ العمارة الرومانية المتأخرة والعمارة المسيحية المبكرة. وهذان السببان معًا الرمزية والفخامة المعمارية زادا من انتشار التخطيط المركزي للكنائس بأنواعها التقليدية والتذكارية وكنائس الشهداء جنبًا إلى جنب مع البازيليكا.

---

١٣٩ – Kleinbauer W.E., "The Origin and Functions of the Aisled Tetraconch Churches in Syria and Northen Mesopotamia".

١٤٠ – Krautheimer, *Early Christian:* 122-127.

١٤١ – Γκιολές, *Παλαιοχριστιανική*: 49-50.

ويتم تصنيف[١٤٢] المباني مركزية التخطيط حسب الشكل إلى مبانٍ دائرية التخطيط، مثمنة التخطيط، وعلى شكل صليب، وذات مخططات ثلاثية أو رباعية الحنايا.

البازيليكا والمباني مركزية التخطيط: ملاحظات على الشكل المعماري والوظيفة

البازيليكا سهلة البناء وتتسم بتصميم به من المرونة ما يسمح بتطويعه لاستخدامات وظيفية متعددة. ولم تعتمد الكنيسة البازيليكية في تأثيرها الجمالي على الشكل الخارجي، وإنما بصورة أكبر على زخارفها الداخلية، الأعمدة وتيجانها، والإفاريز، والفسيفساء، والسقف، والعناصر الطقسية مثل الحجاب والمظلة والمنبر.

وساعد على انتشار البازيليكا في تخطيط الكنائس بخاصة في الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي بصورة كاسحة وفي الشرق والغرب على السواء، سهولة بناء هذا النمط من المباني في المقام الأول. وكان المحدد الرئيسي لأبعاد البازيليكا هو طريقة تسقيفها، وما يترتب عليها من تحديد المواد الخام المستخدمة في التسقيف، ففي الأسقف الخشبية يتحدد عرض الرواق الأوسط بناءً على أحجام الأخشاب المتاحة.

وبالنظر إلى مدى تلبية التخطيط البازيليكي لأغراضه الوظيفية ككنيسة يتبين أنه وإن لم يكن مثاليًّا فقد حقق الكثير من الأغراض الوظيفية. فحيث إن الوظيفة الرئيسية للكنيسة البازيليكية هي الاحتفال بالطقوس المسيحية[١٤٣] فقد حققت، بقليل من المعالجات البسيطة، المتطلبات التالية: قاعة واسعة للتجمع يكون التركيز فيها على طاولة المذبح ورجل الدين الذي يرأس الصلاة (صحن الكنيسة والحنية)، والصلاة باتجاه الشرق تقليديًّا (عن توجيه المحور الطولي باتجاه الشرق)، وفاصل بين رجال الدين والمصلين (الحجاب)، وفاصل بين الذكور والإناث (تخصيص أماكن محددة للنساء، أو الشرفات)، وفاصل بين المعمّدين وغير المعمّدين (استخدام الفناء أو البلاطات الجانبية

١٤٢- *Ibid.*: 129-130.

١٤٣- مانجو، **العمارة البيزنطية**: ٤٢-٤٣.

كمكان لغير المعمّدين)، وأمبون (منبر) لقراءة الكتاب المقدس (يوضع بالرواق الوسط مما يلي الهيكل مباشرة)، وأيضًا سهولة دخول ودوران مواكب المصلين ورجال الدين وحركتهم (الأبواب بين الرواق الغربي وصحن الكنيسة والبلاطات الجانبية من جهة، المجاز القاطع)، وغرفة الدياكونيكون وبها طاولة لوضع تبرعات المؤمنين، ونافورة للاغتسال، وأحيانًا معمودية (الحجرات على جانبي المدخل في الجهة الغربية، ثم نقلها على جانبي الحنية). وهكذا يتضح أنها وإن لم تكن ابتداءً خططت تلبية للأغراض الوظيفية للاحتفال بالقداس والطقوس المسيحية فإنها وعبر معالجات وتنظيمات وإضافات بسيطة تمكنت من الوفاء بمتطلبات الغالبية العظمى منها، مع الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن هناك قانون صارم يتعلق بتحديد استخدام المساحات داخل البازيليكا، باستثناء منطقة الهيكل، والتي جمعت أحيانًا بين الاحتفال بالقداس أو الاحتفال بالشهيد مثل البازيليكا المبكرة للقديس بطرس بروما.

وفي المقابل نجد التخطيط البازيليكي لا يقدم حلاً جيدًا في الفترة المبكرة لمعالجة غرض الوعظ وبخاصة في البازيليكات الضخمة؛ حيث يجلس الأسقف على الكرسي بنهاية الحنية، والمواعظ كانت تستغرق وقتًا طويلاً في هذه الفترة المبكرة نحو ساعتين، ما قد يرهق الأسقف أو الواعظ بالتأكيد.

التخطيط المركزي

استخدام التخطيط المركزي للكنائس التقليدية التي يقام فيها القداس يطرح سؤالاً، وهو على أي أساس كان يتم اختيار التخطيط؟ والحقيقة أن الإجابة أيًّا كانت فلن تكون المتطلبات الوظيفية والطقسية هي المحدد الأول لهذا الاختيار. وقد يكون العامل هو - كما سبق القول - ملمحًا إمبراطوريًّا في نشر هذا التخطيط بطريقة مركزية، أو من قبيل تقليد نمط معماري وجد في العواصم الكبرى.

وإذا كان يمكن تفسير أفضلية استخدام التخطيط المركزي لكنائس الشهداء وظيفيًّا؛ فلم يكن هو الاختيار الوحيد لمثل هذا الغرض. فبينما ارتبط بالمواقع المقدسة والمواقع الإنجيلية وأعمدة القديسين الثابتة في موقعها، ومن ثم تبنى الكنيسة قربها أو فوقها أو حولها. وفي هذه الحالة لم يكن هناك ثمة تقييد للشكل المعماري ليتلاءم مع طبيعة الموقع ولاحتواء الأثر المقدس ليكون هو محور البناء ومركزه على الأغلب.

ومع ذلك لم تكن ثمة معالجة واحدة لتلبية هذا الاحتياج وإنما جاءت معالجات مختلفة، ويوضح ذلك ثلاثة نماذج[١٤٤] مختلفة من عصر قنسطنطين (من أعماله ووالدته هيلانة) وهي كنيسة المهد في بيت لحم، وكنيسة القيامة، وكنيسة إليونا.

فنجد بكنيسة المهد في بيت لحم والتي تمثل نموذجًا رائعًا للكنائس التذكارية[١٤٥] التي تجمع بين الكنيسة والمشهد (كنيسة الشهيد)؛ حيث تضم الكنيسة الأصلية التي بناها قنسطنطين ثلاثة أجزاء رئيسية موزعة محوريًّا: فناء، وبازيليكا من خمسة أروقة، ومبنى مركزي مثمن بني فوق المهد (شكل ١٢٢– ١٢٣). أرضية البازيليكا مفروشة بالفسيفساء، وبعد أن يجتاز المصلي البازيليكا يصعد ثلاث درجات إلى الجزء المثمن. وهذا الفرق في مستوى الأرضية يمكن المصلي من النظر إلى الكهف في الأسفل عبر فتحة دائرية مغطاة بمصبعات حديدية؛ حيث تم إحداث ثغرة في الكهف لهذا الغرض. واستخدام البناء المثمن كان قاصرًا على احتواء هذا المكان المقدس.

بينما في النموذج الثاني في كنيسة القيامة (شكل ١٢٤ – ١٢٥) في القدس وضع قبر المسيح عليه السلام في مساحة مكشوفة إلى الغرب من البازيليكا؛ حيث احتواه بناء مستقل على هيئة مظلة أي أن الكنيسة صممت لتقام فيها الطقوس وليس بغرض احتواء القبر موضع التقديس. وتتشابه كنيسة القيامة مع كنيسة المهد في احتوائهما على خمسة أروقة.

وفي النموذج الثالث كنيسة إليونا (شكل١٢٦) في فلسطين على جبل الزيتونة (عصر قنسطنطين)؛ حيث يوجد كهف يعتقد أن المسيح عليه السلام كان يعلم فيه تلاميذه، فجعل المهندس هذا الكهف أسفل هيكل بازيليكا تقليدية ولم يضمه إلى ضمن البناء مركزي التخطيط كما هو متوقع.

ونستطيع أن نختم هذا المبحث أنه لم يكن هناك مفهوم المدرسة المعمارية كما كانت العمارة الرومانية والتي اتسمت بمركزية التخطيط، بينما في العمارة المسيحية المبكرة يصعب افتراض وجود مدرسة معمارية واحدة؛ حيث تعددت التخطيطات والمعالجات المعمارية للغرض الوظيفي الواحد، لذا فهي اتسمت بالمرونة في التخطيط، واختلفت باختلاف المناطق حيث مثّل الموروث المعماري المتباين لكل منطقة محددًا في المعالجات المعمارية المستخدمة أو تفضيل شكل معماري معين.

١٤٤– المرجع السابق: ٤٦.

١٤٥– Armstrong, *Constantine's Churches* : 14-16.

بناء الكنائس وأرباب العمارة ومصادر التمويل[١٤٦]

تميزت فترة التصالح بين الكنيسة والدولة الرومانية في عهد الإمبراطور قنسطنطين ببرنامج معماري ضخم وطموح سواء على مستوى الإمبرطور والدولة أو على مستوى المنشآت التي يرعاها ويمولها جماعة المؤمنين.

هذا البرنامج الضخم الطموح فضلاً عن تأثر أعداد أرباب العمارة في أرجاء الإمبراطورية نتيجة فترات القلاقل والاضطهاد الأكبر نهاية القرن الثالث الميلادي وبدايات القرن الرابع الميلادي والتي عصفت بالإمبراطورية الرومانية.

ويتضح صدى ذلك كما يذكر المؤرخ سوزيمس Zosimus أن عددًا كبيرًا من المباني التي أنشأها قنسطنطين في عاصمته الجديدة قد انهارت، ويدلل على ذلك أيضًا ندرة عمائر قنسطنطين في الولايات الشرقية.

ولاشك أن المشروع المعماري الطموح الخاص بقنسطنطين كان يحتاج لعدد كبير من المعماريين والحرفيين المهرة بفنون البناء، وهو الأمر الذي انعكس في أمر أصدره الإمبراطور قنسطنطين سنة ٣٣٤م موجه إلى حاكم قرطاجة، يطلب فيه قنسطنطين منه أكبر عدد من المهندسين؛ ولعدم توافرهم يحث الإمبراطور الحاكم على تشجيع الشباب على دراسة العلوم الهندسية؛ وأن يوجه شباب المقاطعات الإفريقية ممن هم في سن الثامنة عشرة لذلك.

ويبدو أن دور الأساقفة كان محورًا عامًّا ليس فقط محور الحياة الدينية في هذه الفترة بل شمل كل مناحي الحياة، فهم المعنيون بالبناء وتدبير نفقاته في كثير من الأحيان، والإشراف على تنفيذ البناء، ومتابعة العمال. وفي المقابل نجد أسماء المهندسين التي وصلت إلينا من هذه الفترة المبكرة قليلة، وإن وجد المهندس فيقتصر دوره على تنفيذ التخطيط وليس التصميم.

تساعدنا المصادر المعاصرة لهذه الفترة المبكرة في التعرف على آلية وكيفية عمارة الكنائس في تلك الفترة، فيذكر مانجو Mango ثلاث وثائق مهمة في هذا الصدد: الوثيقة الأولى تمثل رسالة أرسلها الإمبراطور قنسطنطين إلى مكاريوس Macarius أسقف القدس فيما يتعلق ببناء كنيسة القيامة سنة ٣٢٦ م ومفادها كالتالي:

١٤٦ – مانجو، العمارة البيزنطية: ١٤– ١٩.

«نرغب أن تكون هذه الكنيسة الأجمل في العالم، وقد أصدرنا تعليماتنا بصدد ذلك إلى نائب الشرق وحاكم فلسطين، فبعد استشارتك، سيقوم هذان المسئولان بتوفير الحرفيين والمواد وتحمل النفقات. وعليك الاتصال معنا مباشرة فيما يخص نقطتين: ١- نوع وكمية الرخام المطلوب، ٢- فيما إذا كان السقف سيزخرف. وإن كان كذلك ففي هذه الحالة يجب كذلك أن يُطلى بالذهب».

الوثيقة الثانية تؤرخ لسنة ٣٨٠ م، وهي رسالة من القديس جريجوري St. Gregory في نيسا (في الأناضول) إلى الأسقف أمفيلوكيس Amphilochius أسقف إكونيوم (قونية الحالية)، حيث كان القديس جريجوري يقوم ببناء كنيسة شهيد، وقد قام أولاً بالحديث عن شكلها وإعطاء المقاسات: تتكون الكنيسة من فراغ مركزي مثمن الشكل، وذات سقف مخروطي، وذات أربعة أذرع لتعطي شكل الصليب، وأبعاد الأذرع ١٢ × ٨ أمتار وسمك (عرض) الجدران ٣ أقدام.

كان البناء سيبنى من الآجر مع تداخل أجزاء حجرية ورخامية لعدم توافر الحجارة محليًّا، وهذه الأجزاء هي بالتحديد: ثمانية أعمدة وتيجانها وقواعدها لتشكيل الجزء المثمن، وإطار منحوت للباب، ومجموعة من الأعمدة الداعمة وعددها على الأقل ٤٠ عمودًا.

ويذكر القديس جريجوري أن لديه ٣٠ بنَّاءً محليًّا يعملون مقابل قطعة ذهبية "Solidus" يوميًّا مع طعامهم، لكنه اعتبر تلك الأجور باهظة، ورأى أن العمال من منطقة إكونيوم سيكونون أقل تكلفة، وكان حازمًا بشأن توضيح مدى ما ينجزه كل عامل يوميًّا. وتمثل كنيسة نيسا هنا كنيسة صغيرة تبنى على نفقة الكنيسة المحلية أو على نفقة الأسقف وليست مشروعًا حكوميًّا.

تتعلق الوثيقة الثالثة ببناء كاتدرائية غزة في الفترة بين ٤٠٢ — ٤٠٧ م، وكانت مشروعًا ممولاً من الدولة، لكن يبدو أن العمال كانوا متطوعين من المجتمع المسيحي. وقد خطط الأسقف بورفري لبناء الكاتدرائية على أنقاض معبد زيوس مارناس بعد أن هدمه. وأرسلت الإمبراطورة إفذوخيا رسالة للأسقف تتضمن مخططًا للكنيسة على شكل الصليب. واستخدم الأسقف مهندسًا من أنطاكيا اسمه روفينوس Rufinos، حيث حدد المخطط على الأرض باستخدام الجير، ثم حفرت خنادق الأساسات. وتم البناء باستخدام حجارة جلبت من محجر محلي قريب. أما الأعمدة الرخامية فقد أرسلتها الإمبراطورة وعددها ٣٢ عمودًا من رخام كارستوس (الأخضر المعرق من جزيرة أيوبيا)، واستغرق بناء الكاتدرائية خمس سنوات.

وتمثل مثل هذه الوثائق مصدرًا خصبًا نستطيع عبره الوقوف على معلومات عديدة تتعلق بالعمارة

بصفة عامة وعمارة الكنائس بصفة خاصة، مثل دور الأساقفة، والمهندسين والعمال وأجورهم، وكيفية الحصول على المواد الخام وعلاقتها وتأثيرها على التخطيط، وآليات تمويل البناء، والتخطيطات المعمارية ومدى تنفيذها وفق رسوم أولية، ومراحل البناء والمشكلات التي قد يتعرضون لها أثناء البناء...

نستنتج من الوثائق الثلاث أن دور الأسقف محوري؛ فنستطيع أن نقول إن كل كبيرة وصغيرة تحدث من خلاله، فنجد التواصل بينه وبين الإمبراطور مباشرًا دون وساطة في الأعمال الإمبراطورية، بل ونفوذه يعلو نفوذ حكام الولايات في هذا الصدد، وهو أيضًا يضع التصميم فنجده في الوثيقة الثانية يخاطب أسقف إكونيوم موقنًا أنه على علم بالتفاصيل المعمارية التي يذكرها وملمٌّ بها، وهو كذلك في غير المشروعات الحكومية المسئول عن تدبير نفقات البناء سواء من أموال الكنيسة أو تبرعات المؤمنين أو على نفقته الشخصية.

وثمة ملاحظة هي التواصل القوي بين الأساقفة ويعكس ذلك فضلاً عن نقل الخبرات قناة رئيسية لانتشار تخطيط معماري معين ويمكن في ضوء ذلك تفسير انتشار التخطيط المركزي في نيسا وإكونيوم وبصرى والرصافة وغزة في فترة زمنية صغيرة ومتقاربة.

وتعكس أيضًا هذه الوثائق الاهتمام الشديد بالأعمدة الرخامية، ومدى تأثيرها على التخطيط خاصة المركزي والذي يعتمد عليها بصفة رئيسية بل وتحكم أبعاده.

وتلقي مثل هذه الوثائق وغيرها من كتابات المؤرخين الضوء على مصادر تمويل بناء الكنائس في هذه الفترة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة مصادر رئيسية: ١- الدولة وذلك في الكنائس التي يأمر الإمبراطور أو أي من الولاة أن تُبنى كنيسة على نفقة الدولة. وتتسم هذه الكنائس عادة بالمساحات الكبيرة وبالفخامة المعمارية والزخرفية بما يعكس قدرهم ونفوذهم. ٢- الكنائس المحلية والتي يبنيها الأسقف أو القديس بإحدى المدن أو القرى إما على نفقته الشخصية أو من أموال الكنيسة نفسها والتي تجمعت لديه. ٣- المتبرعون وهي أن يقوم متبرع أو أكثر ببناء كنيسة على نفقاتهم الشخصية، أو أن يتبرع بالبناء مجموعة من المسيحيين أنفسهم؛ وهناك في الغالب تداخل بين جهات التمويل بخاصة النوعين الأخيرين من مصادر التمويل.

والبناءون والعمال الذين يشتغلون ببناء الكنائس نجدهم كذلك ثلاثة أنواع: من يعمل بالسخرة والإجبار، وهذا النوع خاصة في الأعمال الإمبراطورية، ومن يعمل بأجر، ومن يعمل متبرعًا طواعية.

وشهد بناء الكنائس في القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين انتشارًا وازدهارًا كبيرين؛ فبعد التصالح مع الدولة الرومانية أقبل المسيحيون على بناء الكنائس سواء تلك التي كانت قد تهدمت أو كنائس جديدة بالكلية، وزاد عدد الكنائس بصورة كبيرة. والغالبية العظمى من هذه الكنائس تمت تحت إشراف وبتمويل من الكنيسة ككيان يدير شئون المجتمع المسيحي. حيث تجمعت لدى الكنيسة ثروات كبيرة في هذه الفترة المبكرة (القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين) نتيجة تبرعات المؤمنين والذين تضاعفت أعدادهم، وأقبلوا على اعتناق المسيحية جماعات. وعبر هذه التبرعات ازدادت ممتلكات الكنيسة وصارت لها ما يشبه الأوقاف، فأصبح لها إيرادات والتي تراكمت بالتوريث. وكان يدفع من هذه الأموال لبناء وتعمير وصيانة الكنائس، ورواتب رجال الدين، وتوزع منها الصدقات. وكان الأساقفة يشجعون على التبرع للكنيسة، حتى تتمكن من الوفاء بمتطلباتها وتخدم المجتمع المسيحي.

وبناء كنيسة جديدة كان يترتب عليه وظائف جديدة لرجال الدين، ومصدر جديد للتبرعات، لكن هذه الكنيسة الجديدة قد تمثل عبئًا على الأسقفية في حالة لم تكن تغطي التبرعات التي تحصل عليها احتياجاتها.

وفي هذا السياق يمكن تفسير ظاهرة تعدد الكنائس المبنية بجوار بعضها، فما الداعي أو الهدف من بناء كنيسة جديدة على بعد أمتار أو مسافات قريبة من كنيسة أخرى كبيرة. وقد أدى هذا الوضع وتفاقمه إلى انهيار هذا النظام مع بدايات القرن السادس الميلادي.

حيث قد بُنيَت الكثير من الكنائس وتم تعيين الكثير من رجال الدين وأحيانًا بضغوط من الممولين، ومع زيادة عدد الكنائس لهذه الدرجة فاقت النفقات التبرعات والهبات، حتى إن كنائس القنسطنطينية الأربع الرئيسية نفسها شهدت أوضاعًا مالية بائسة، مما اضطر الإمبراطور جستنيان إلى إصدار مرسوم يمنع فيه ترسيم كهنة جدد.



ألبوم الصور



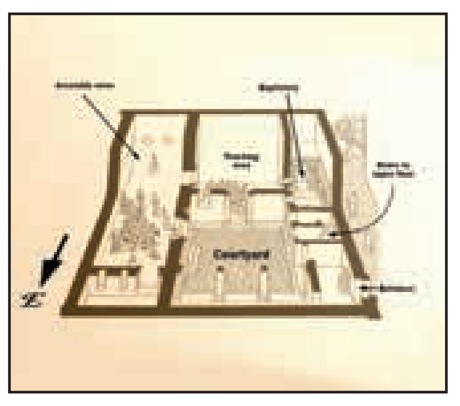
(شكل ١) قوس نصر الإمبراطور تيتوس بروما تخليدًا لذكرى انتصاره على ثورة اليهود وتدميره أورشليم سنة ٧٠ م



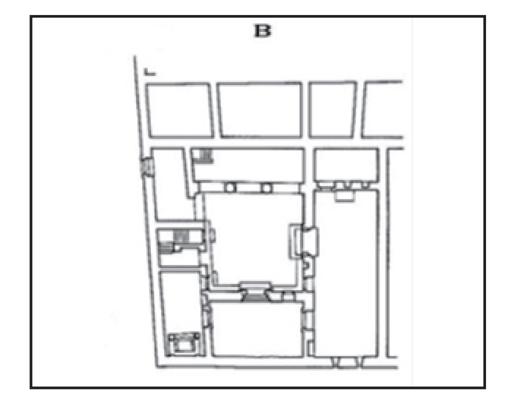
(شكل ٢) تفصيل لمشهد سبي محتويات المعبد اليهودي من قوس نصر تيتوس بالشكل السابق

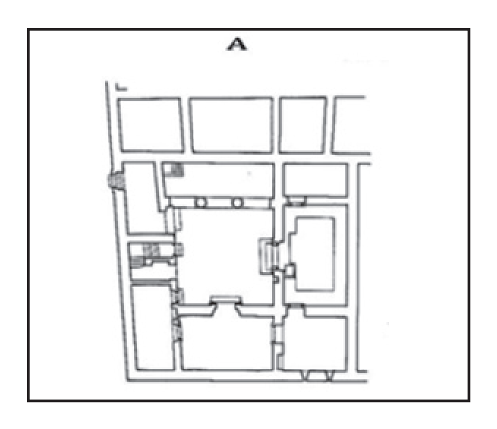


(شكل ٣) دورا أوروبوس أقدم كنيسة منزلية، بالصالحية – سورية، منظر عام باتجاه الغرب



(شكل ٤) دورا أوروبوس أقدم كنيسة منزلية، تصور منظوري يوضح استخدام المنزل كنيسة منزلية



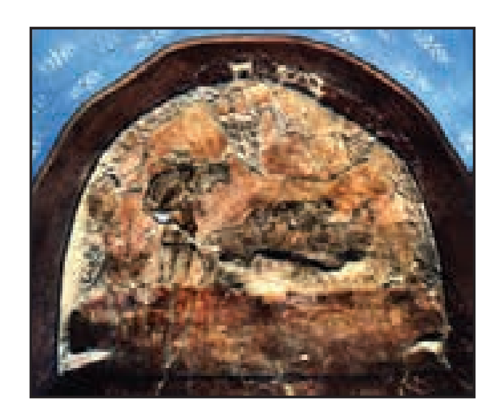


(شكل٥) دورا أوروبوس، (A) مسقط أفقي للمنزل قبل تحويله لكنيسة منزلية

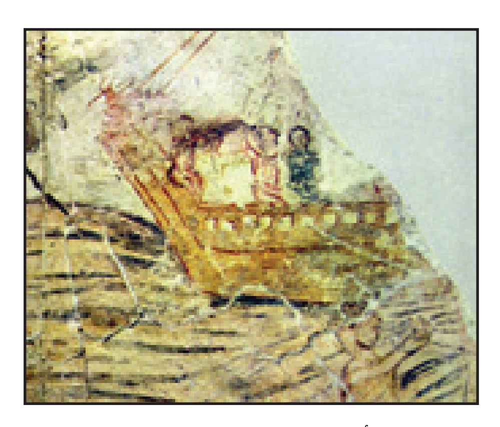
(B) بعد تحويله لكنيسة منزلية



(شكل ٦) دورا أوروبوس أقدم كنيسة منزلية، المعمودية من الداخل عند اكتشافها، ويظهر بها حوض المعمودية والظلة أعلاه، والرسوم الجدارية



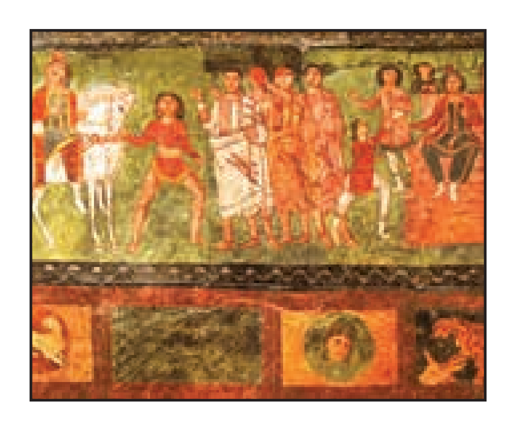
(شكل ٧) دورا أوروبوس، رسم جداري موضوعه الراعي الصالح



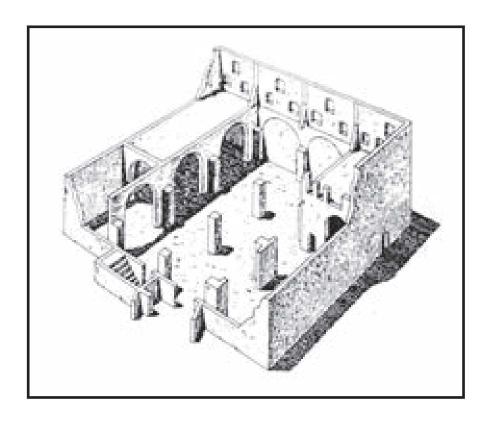
(شكل ٨) دورا أوروبوس، رسم جداري يوضح المسيح وبطرس يمشيان على الماء



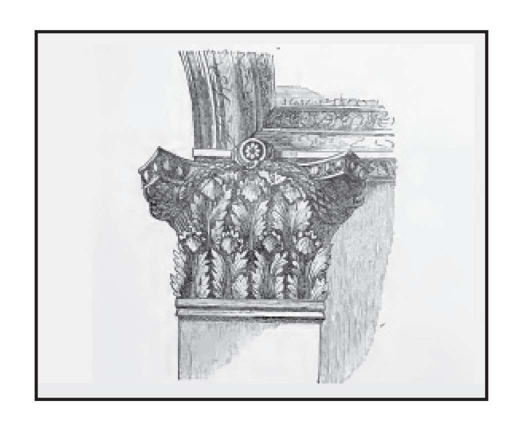
(شكل ٩) دورا أوروبوس، رسم جداري موضوعه شفاء القعيد



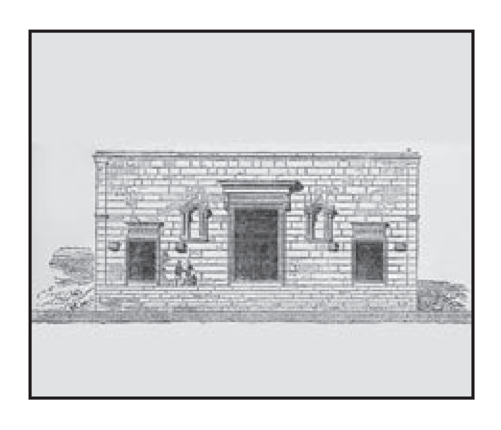
(شكل ١٠) دورا أوروبوس، الكنيس اليهودي، رسم جداري



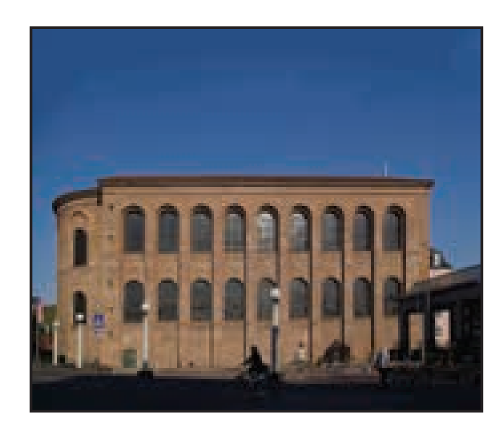
(شكل ١١) Titulus Equitii نموذج الكنائس المنزلية في روما



(شكل ١٢) كنيسة ديار بكر (SS. Cosmas and Damian)، تاج عمود كلاسيكي



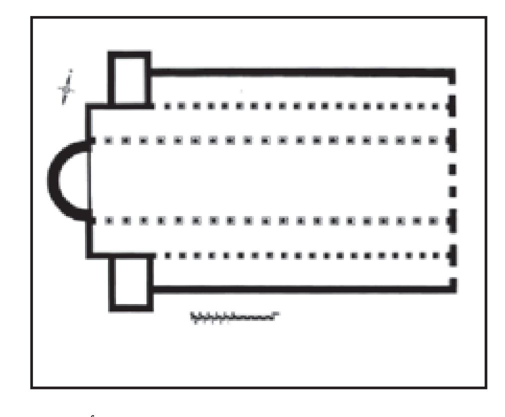
(شكل ١٣) واجهة كنيسة شقا Chaqqa، بسوريا



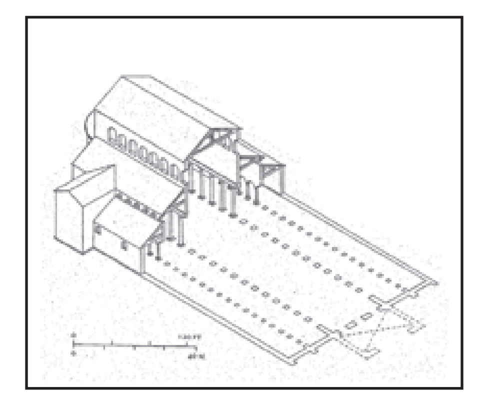
(شكل ١٤) بازيليكا القصر الروماني أنشأها الإمبراطور قسطنطين بمدينة Trier بألمانيا من الخارج



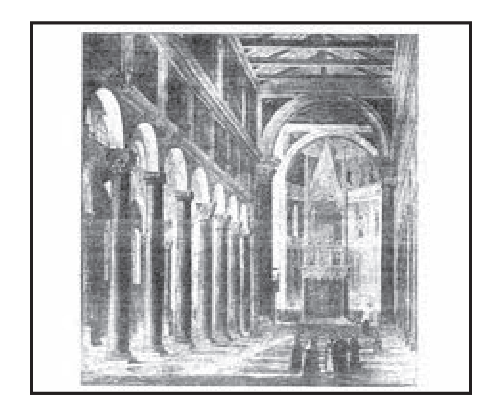
(شكل ١٥) البازيليكا من الداخل



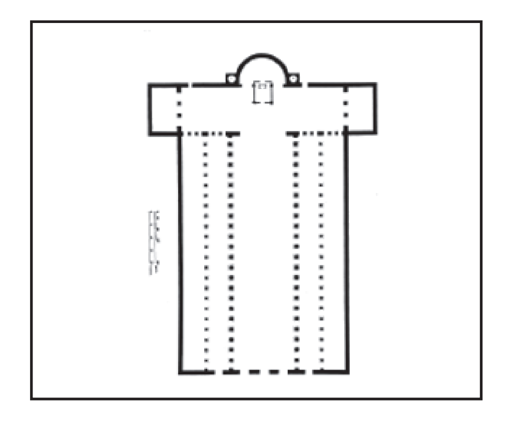
(شكل ١٦) كنيسة لاتيران، روما (نحو ٣١٣ م)، مسقط أفقي



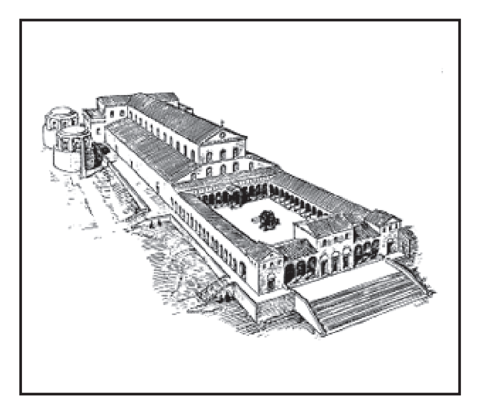
(شكل ١٧) كنيسة لاتيران، روما، مخطط منظوري تصوري



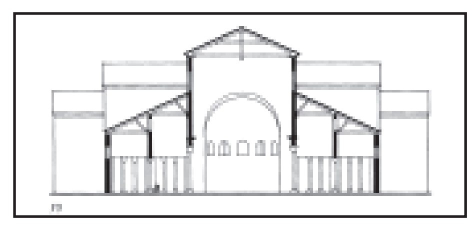
(شكل ١٨) كنيسة لاتيران، روما، تصور منظوري للرواق الأوسط،
عن: "F. Gagliardi, c. 1650"



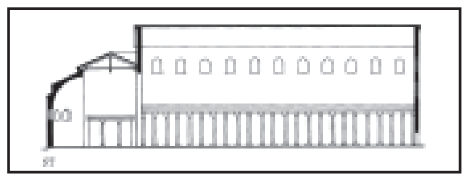
(شكل ١٩) كنيسة القديس بطرس، روما،
تصور لشكل الكنيسة نحو سنة ٤٠٠ م، مسقط أفقي



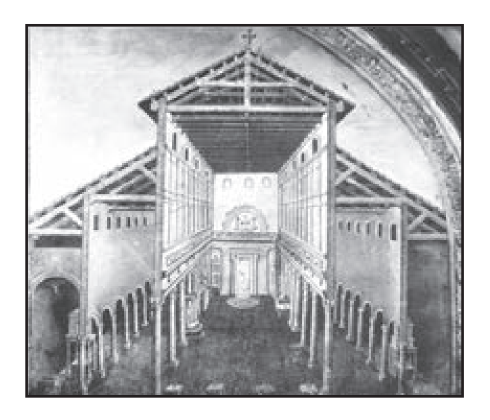
(شكل ٢٠) كنيسة القديس بطرس، روما، تصور لشكل الكنيسة
نحو سنة ٤٠٠ م، منظور



قطاع عرضي من الجنوب للشمال



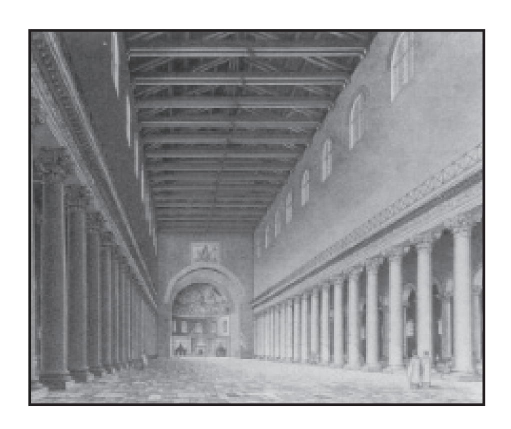
قطاع طولي من الشرق للغرب



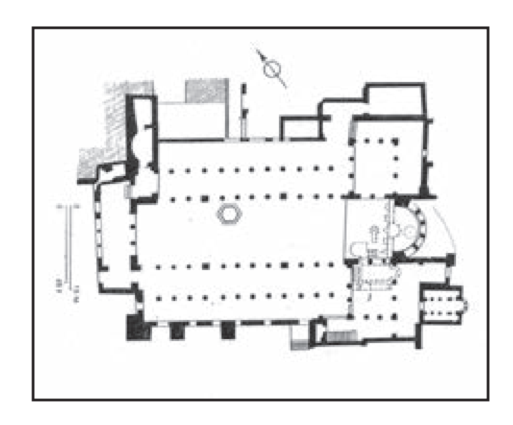
(شكل ٢١) رسم لكنيسة القديس بطرس، روما، تصور منظوري
للبازيليكا وتقسيمها وتسقيفها من الداخل



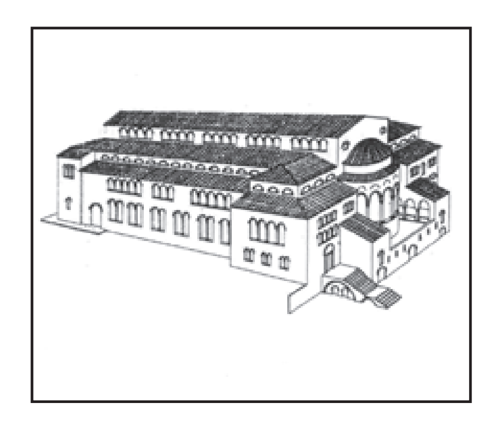
(شكل ٢٢) كنيسة القديس بطرس بروما، تصور منظوري للبازيليكا
وتقسيمها وتسقيفها من الداخل



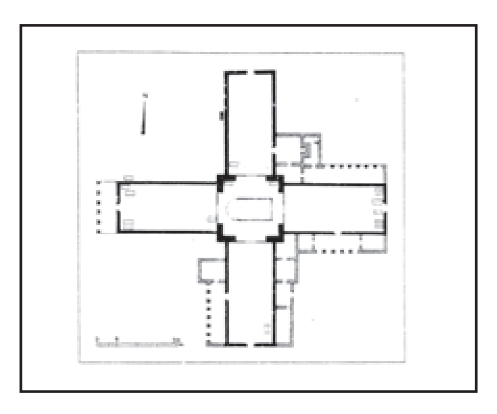
(شكل ٢٣) كنيسة القديس بطرس، روما، تصور منظوري للبازيليكا
وتقسيمها وتسقيفها من الداخل، صحن الكنيسة



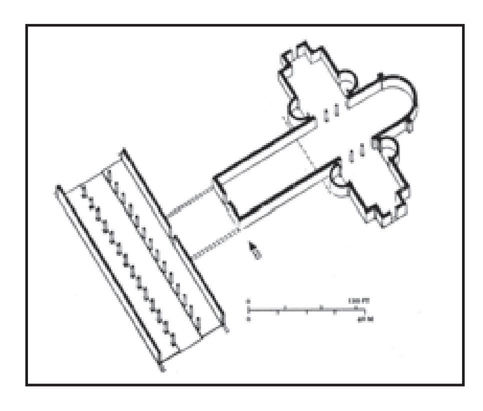
(شكل ٢٤) كنيسة القديس ذيميتريوس، ثيسالونيكي
(نهاية القرن ٥ م، وق ٧ م)، مسقط أفقي



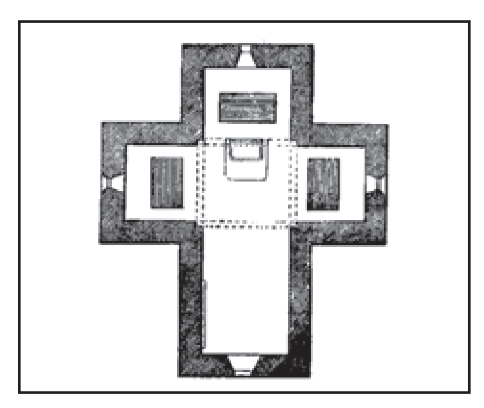
(شكل ٢٥) منظور



(شكل ٢٦) كنيسة القديس بابيلاس في أنطاكية (٣٨١ م)،
مسقط أفقي



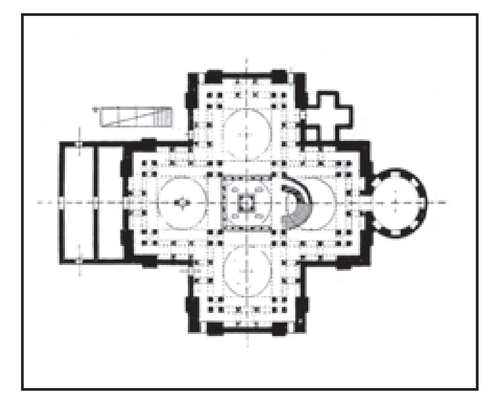
(شكل ٢٧) كنيسة الرسل المقدسين في ميلانو (ق٤ م)،
مسقط أفقي



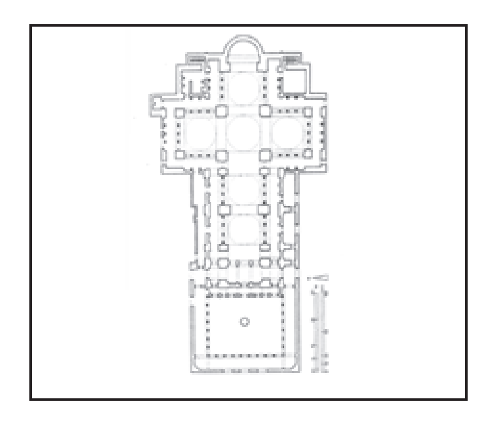
(شكل ٢٨) مصلى الصليب المقدس (أو ضريح غالا بلاسيديا،
القرن ٥ م) برافينا، مسقط أفقي



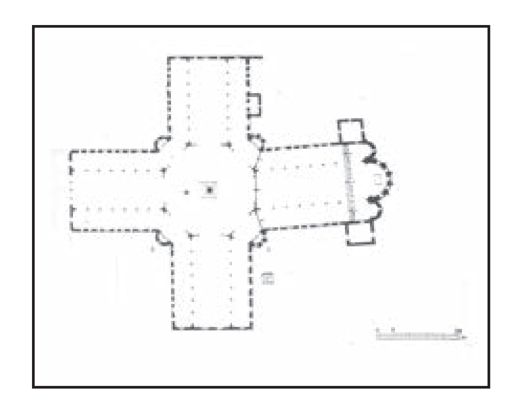
(شكل ٢٨أ) منظر عام من الخارج



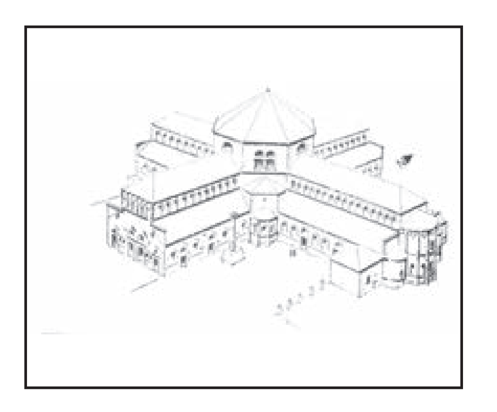
(شكل ٢٩) كنيسة الرسل المقدسين في القسطنطينية مسقط أفقي
(ق٤، ق٦ م)



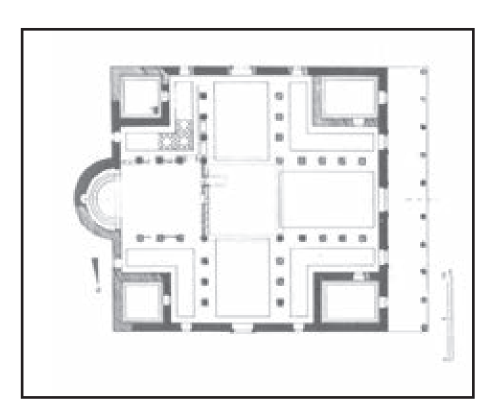
(شكل ٣٠) كنيسة القديس يوأنس في إفسوس، مسقط أفقي (ق٤-٥ م)



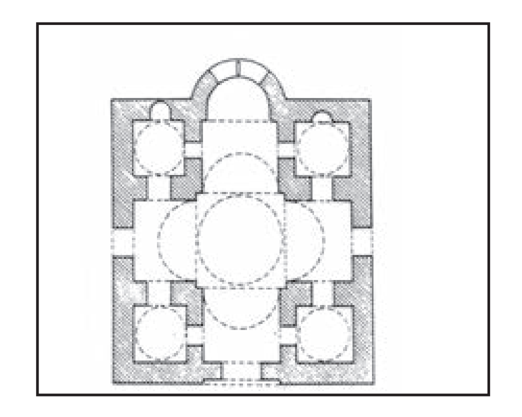
(شكل ٣١) كنيسة القديس سمعان العمودي
بقلعة سمعان في شمال سوريا (٤٧٦-٤٩٠ م)، مسقط أفقي



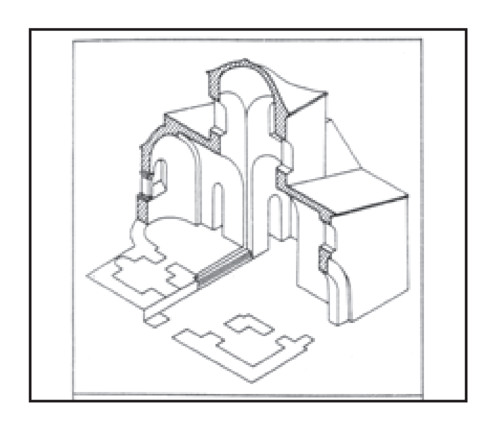
(شكل ٣٢) منظور



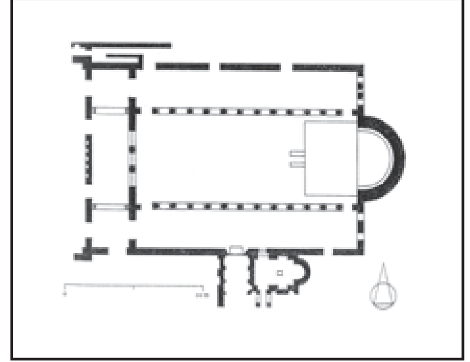
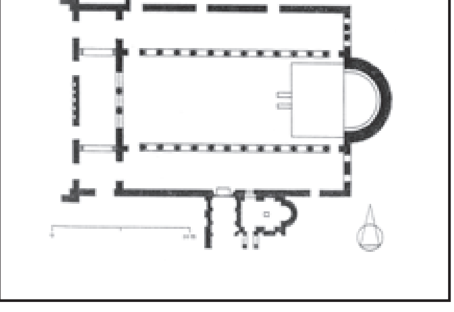
(شكل ٣٣) كنيسة مدينة جرش بالأردن المعروفة بكنيسة الأنبياء
والرسل والشهداء (٤٦٤-٤٦٥ م)، مسقط أفقي



(شكل ٣٤) كنيسة دير لاتوموس بثيسالونيكي
(النصف الثاني من القرن ٥ م)، مسقط أفقي

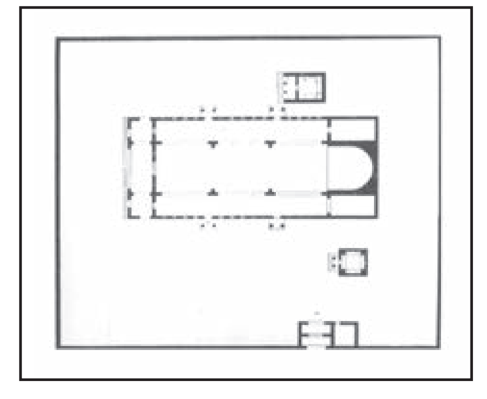


(شكل ٣٥) تصور مسقط منظوري

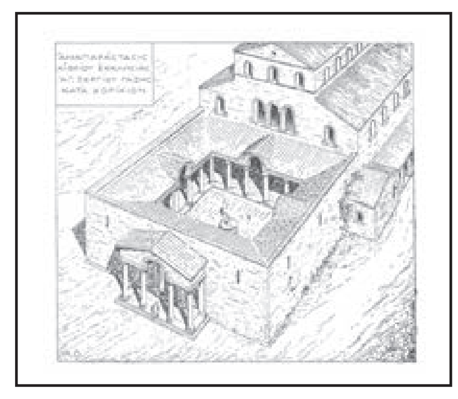



(شكل ٣٦) بازيليكا العذراء (Acheiropietos) بثيسالونيكي
(منتصف القرن ٥ م)، مسقط أفقي

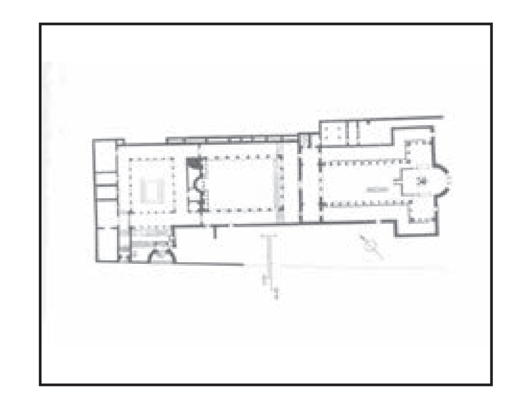
(شكل ٣٧) بازيليكا العذراء (Acheiropietos) بثيسالونيكي،
قطاع رأسي من الغرب إلى الشرق



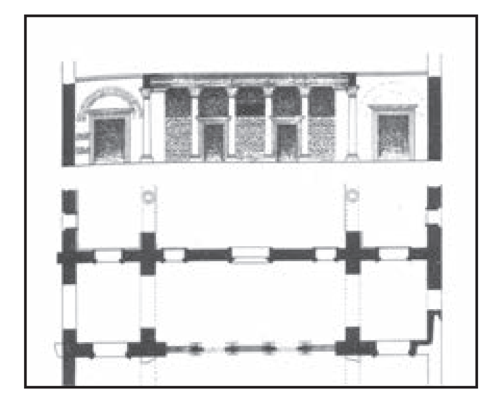
(شكل ٣٨) بازيليكا ريبيكاس بسوريا (ق٤ م)، مسقط أفقي



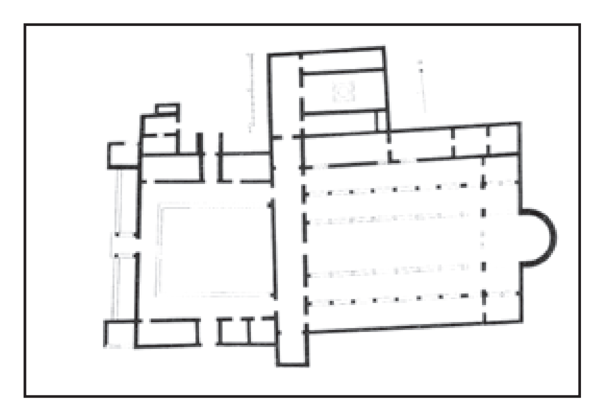
(شكل ٣٩) بازيليكا القديس سرجيوس في غزة فلسطين ق٤ م،
تصور منظوري



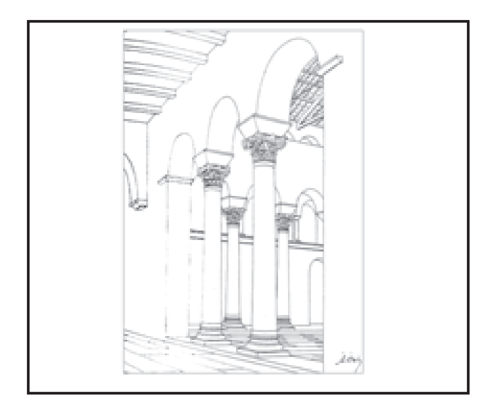
(شكل ٤٠) بازيليكا A بفيليبى (نحو ٥٠٠ م)، مسقط أفقي



(شكل ٤١) بازيليكا A في فثيوتيذس ثيڤس
(أو بازيليكا القديس ديمتريوس)

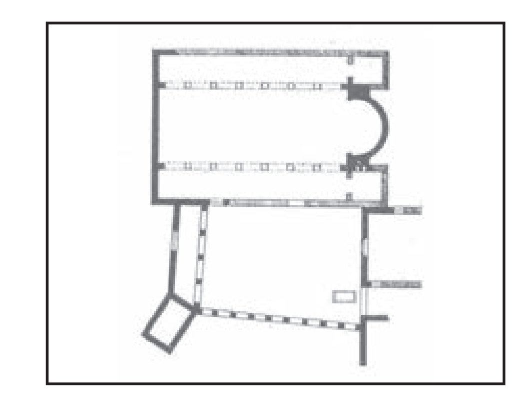


(شكل ٤٢) بازيليكا إبيذافروس (نحو ٤٠٠ م)، مسقط أفقي

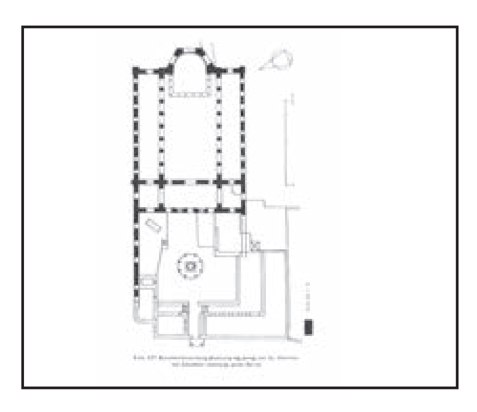


(شكل ٤٣) بازيليكا ستوديوس بالقسطنطينية (منتصف القرن ٥ م)، مسقط أفقي وقطاع تصوري للرواق الشرقي للفناء

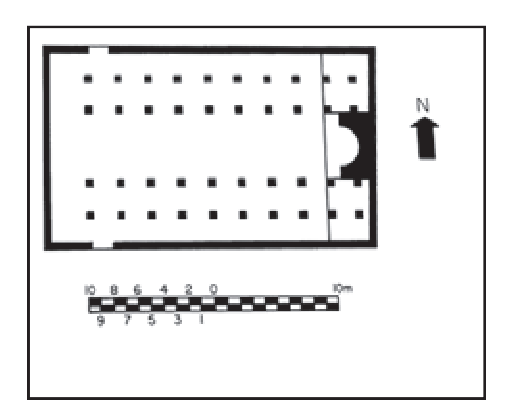
(شكل ٤٤) بازيليكا العذراء (Acheiropietos) بثيسالونيكي (منتصف القرن ٥ م)، منظور تصوري للبائكة الثلاثية التي توصل لصحن البازيليكا عبر سقيفة المدخل



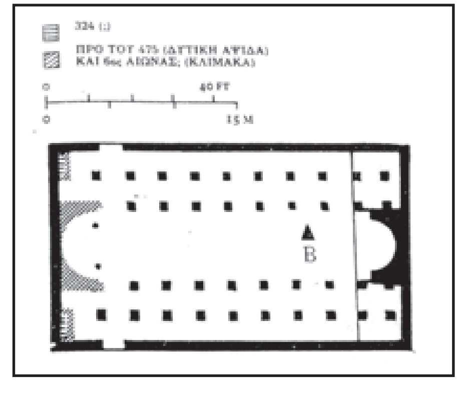
(شكل ٤٥) بازيليكا بابيسكاس بسوريا (القرن ٤ م)
مسقط أفقي



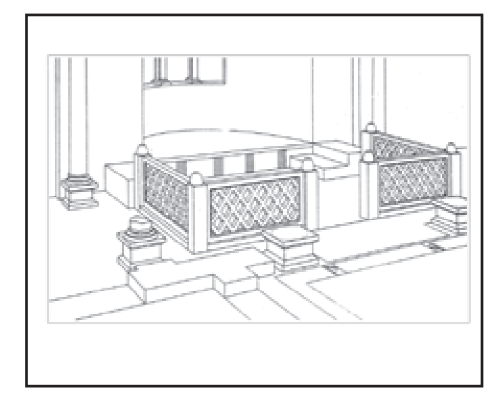
(شكل ٤٦) بازيليكا ستوديوس بالقسطنطينية (منتصف ق٥ م)
مسقط أفقي



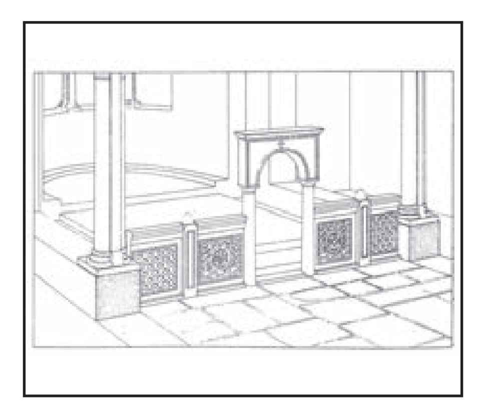
(شكل ٤٧) بازيليكا الشلف شمال إفريقيا (٣٢٤ م)



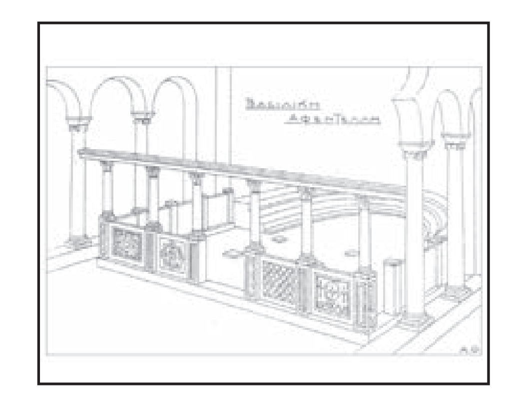
(شكل ٤٨) البازيليكا (ق٥ –٦ م)



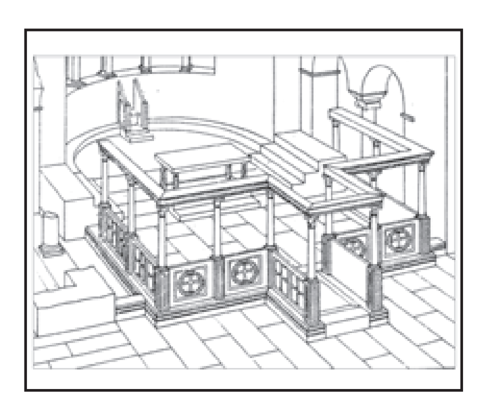
(شكل ٤٩) بازيليكا ذافنيسيو لوكريذوس (أوائل ق٥ م)، تصور منظوري لحجاب الهيكل المنخفض ذي الحشوات الحجرية المزخرفة



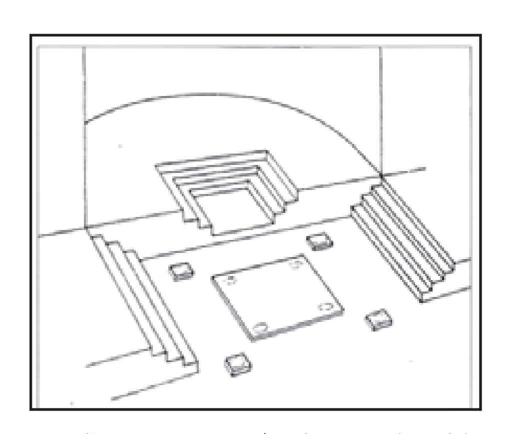
(شكل ٥٠) بازيليكا أوليمبيا (أوائل ق٥ م)، تصور منظوري لحجاب الهيكل المنخفض ذي الحشوات الحجرية المزخرفة والباب المعقود



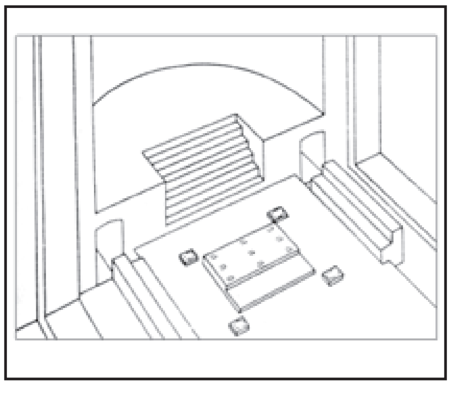
(شكل ٥١) بازيليكا أفندلي بلسبوس (ق ٦ م)، تصور منظوري لحجاب الهيكل المرتفع



(شكل ٥٢) بازيليكا ثاسو (ق ٦ م)، تصور منظوري لحجاب الهيكل المرتفع



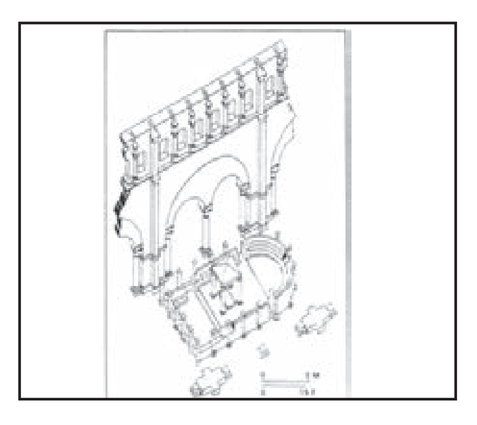
(شكل ٥٣) كنيسة بازيليكا A في فثيوتيذس ثيـڤس، درج الكهنوت في حنية الهيكل



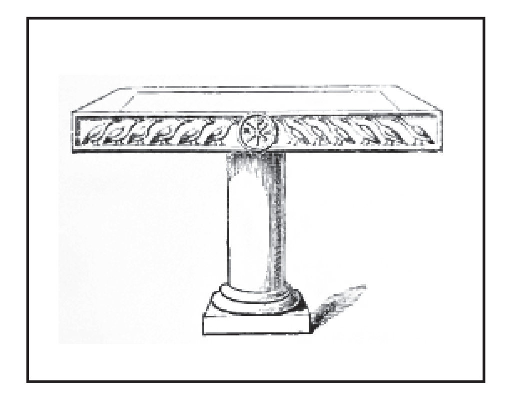
(شكل ٥٤) بازيليكا B بنيكوبوليس، درج الكهنوت



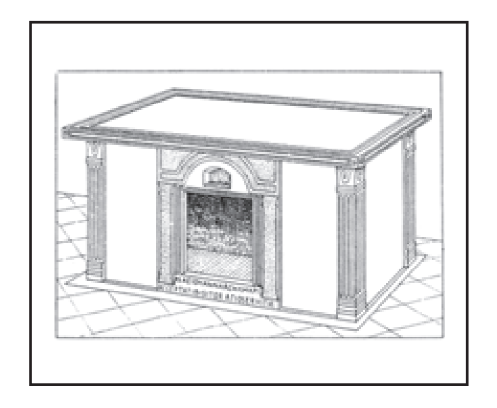
(شكل٥٥) كرسي الأسقف ماكسيميانوس برافينا (منتصف ق٦ م) والمحفوظ حاليًا بالمتحف الوطني برافينا.



(شكل ٥٦) بازيليكا A بالرصافة بسوريا، رسم يوضح درج رجال الدين خارج الحنية



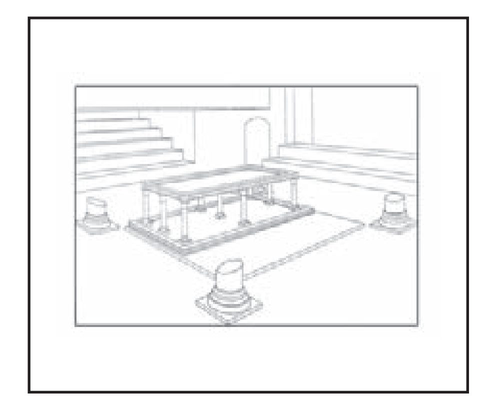
(شكل٥٧) مذبح كنيسة أَيريول "Auriol" بفرنسا (ق٥-٦ م)



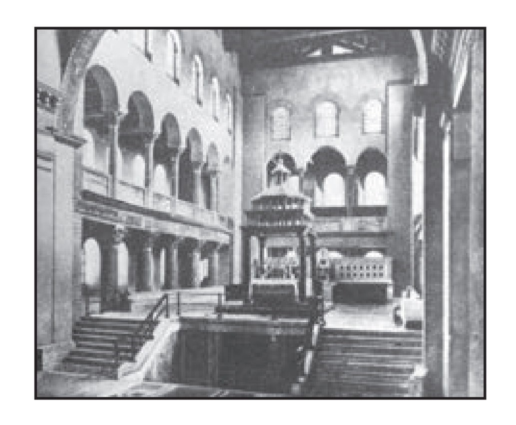
(شكل ٥٨) مذبح بازيليكا القديس يوحنا المعمدان برافينا (ق٥ م)



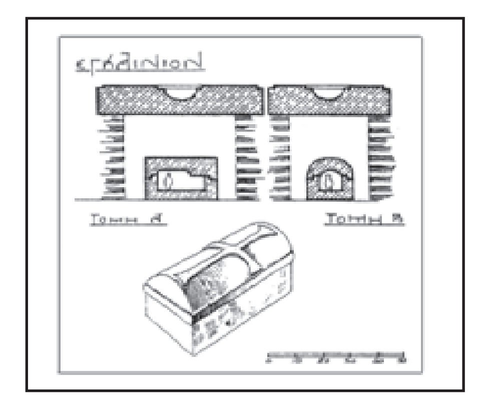
(شكل ٥٩) بازيليكا القديس أبولينار في كلاسي برافينا، مذبح تعلوه مظلة ترتكز على أربعة أعمدة



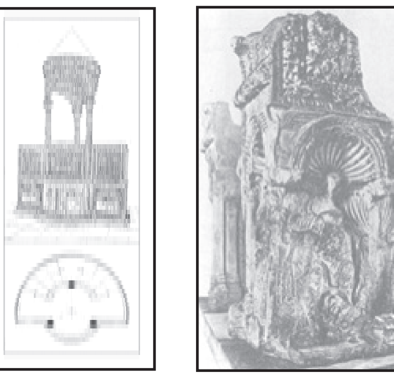
(شكل ٦٠) مذبح كنيسة بازيليكا B بنيكوبوليس.



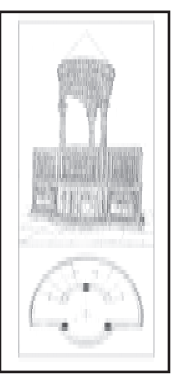
(شكل ٦١) كنيسة القديس لورنزو بروما، الهيكل مرتفع عن صحن الكنيسة، والسرداب أسفل الهيكل



(شكل ٦٢) بازيليكا أفندلي بلسبوس (القرن ٦م)، الآثار المقدسة داخل صندوق أسفل موقع المذبح

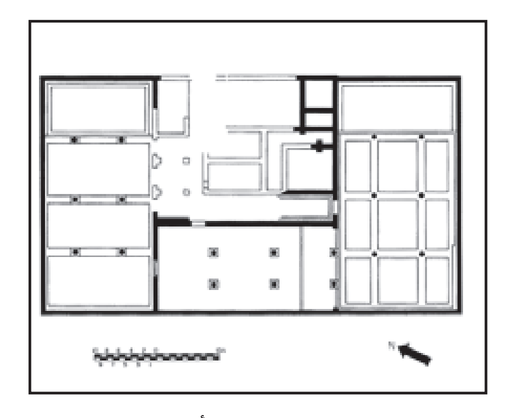


(شكل ٦٣) بازيلكيا القديس جورج بثيسالونيكي والمحفوظ حاليًا بالمتحف الأثري بأسطنبول



(شكل ٦٤) بازيليكا A في فثيوتيذس ثيـڤس، مسقط ومنظور تصوري للأمبون (ق٥ م)

(شكل ٦٥) بازيليكا القديس أجريكو بذيلوس، رسم تصوري للأمبون (ق٦ م)



(شكل ٦٦) البازيليكا المزدوجة بأكويليا (٣١٣-٣١٩ م)، مسقط أفقي

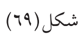


(أشكال ٦٧-٦٩) البازيليكا المزدوجة بأكويليا (٣١٣-٣١٩ م)، الكنيسة الجنوبية، تفاصيل للفسيفساء الأرضية

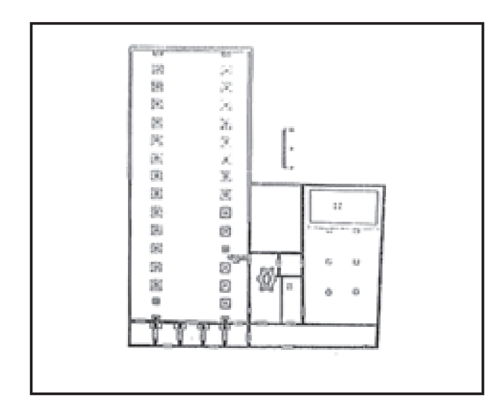


(شكل ٦٨)

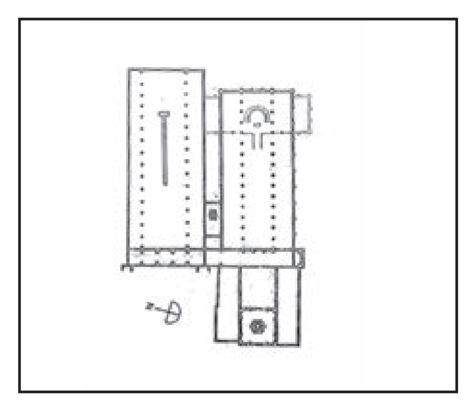




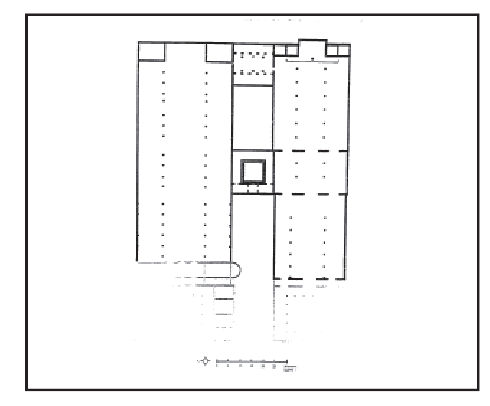
شكل(٦٩)



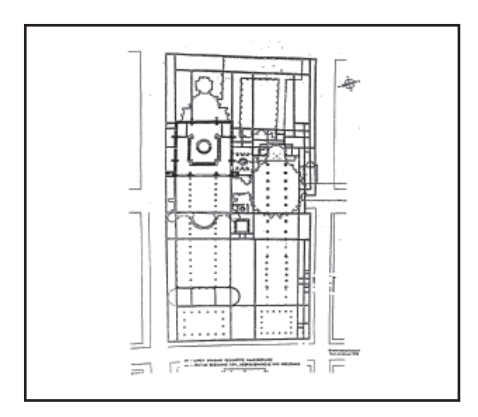
(شكل ٧٠) البازيليكا المزدوجة بأكويليا
(منتصف القرن٤ م)، مسقط أفقي



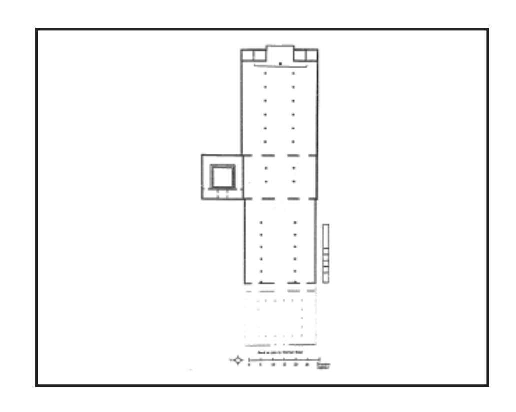
(شكل ٧١) البازيليكا المزدوجة بأكويليا
(نهاية القرن٤ م- بداية القرن ٥ م)، مسقط أفقي



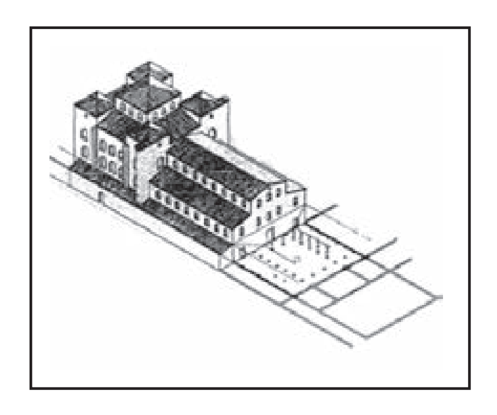
(شكل ٧٢) البازيليكا المزدوجة بتريير Trier
(نحو منتصف القرن٤ م)، الكنيسة الجنوبية (المرحلة الثالثة)،
والكنيسة الشمالية (المرحلة الأولى)، مسقط أفقي



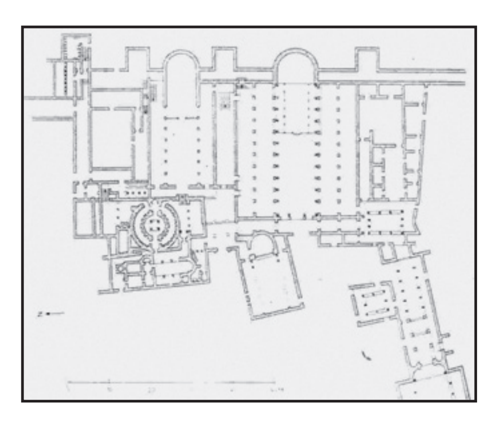
(شكل ٧٣) البازيليكا المزدوجة بتريير Trier
(الربع الثالث من القرن ٤ م)، مسقط أفقي



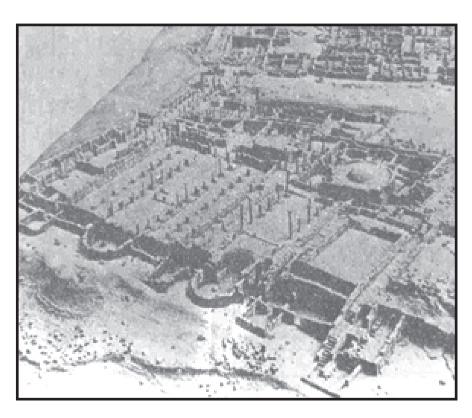
(شكل ٧٤) البازيليكا المزدوجة بترير، الكنيسة الجنوبية
(المرحلة الثالثة، نحو سنة ٣٣٠ م)، مسقط أفقي



(شكل ٧٥) البازيليكا المزدوجة بترير، الكنيسة الشمالية
(نحو منتصف القرن ٤ م)، منظور تصوري



(شكل ٧٦) البازيليكا المزدوجة، جميلة Djemila بالجزائر
(نهاية القرن ٤ م – بداية القرن ٥ م)، مسقط أفقي



(شكل ٧٧) منظر عام



(شكل ٧٨) كنيسة عين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر
(ق ٤ م)، الموقع، مسقط أفقي



(شكل ٨٠) كنيسة عين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر
(ق٤ م)، الدركاة



(شكل ٧٩) كنيسة عين الجديدة بالواحات الداخلة بمصر (ق٤ م)،
المجمع الكنسي



(شكل ٨١) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة،
من الغرب إلى الشرق



(شكل ٨٢) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة
من الشرق إلى الغرب



(شكل ٨٣) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة، الحنية والجدار المشترك، وموضع الأمبون



(شكل ٨٤) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة، موضع الأمبون من داخل الكنيسة



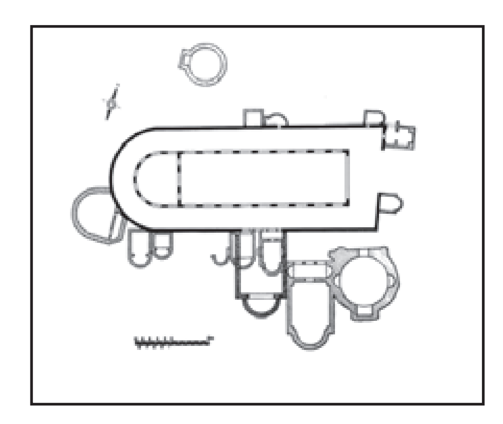
(شكل ٨٥) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة، موضع الأمبون من داخل الكنيسة الثانوية



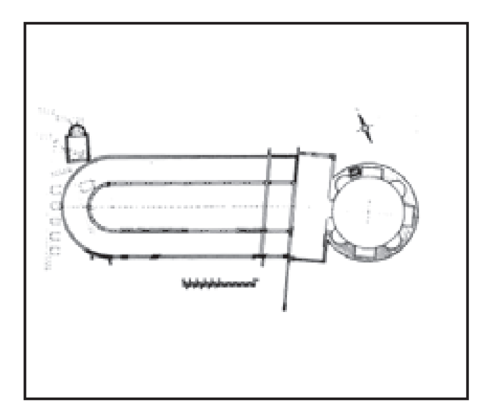
(شكل ٨٦) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة، الحنية



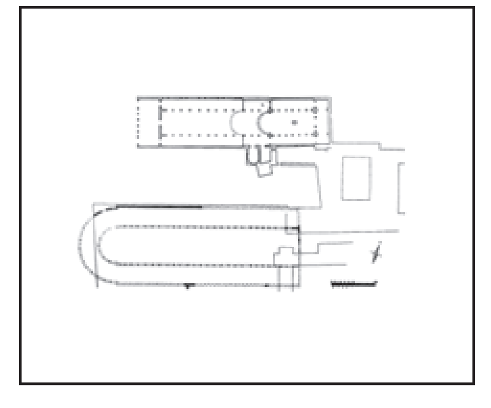
(شكل ٨٧) كنيسة عين الجديدة، الكنيسة المزدوجة، تخطيط يوضح مستويات الحركة والخصوصية



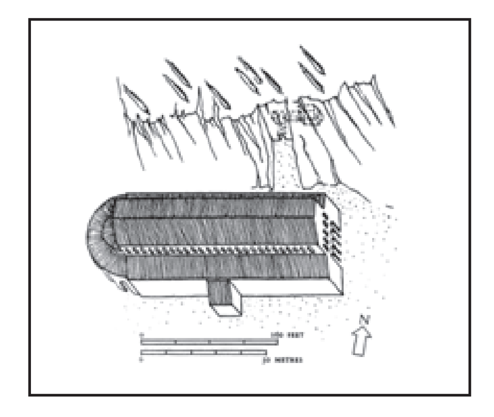
(شكل ٨٨) بازيليكا القديس سباستيان (الرسل) في روما (نحو سنة ٣١٢-٣١٣ م حتى ٣٤٠ م)، مسقط أفقي



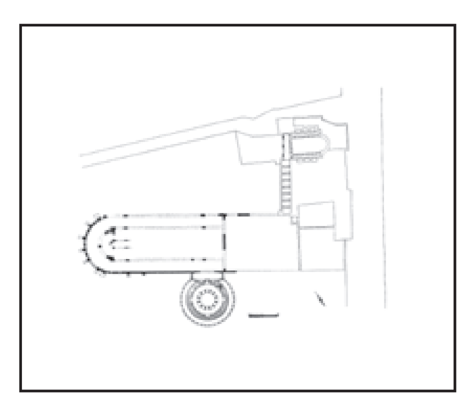
(شكل ٨٩) بازيليكا القديسين مارسيلينوس وبطرس في روما (نحو سنة ٣٢٠ م)، وملحق بها ضريح هيلينا والدة قسطنطين، مسقط أفقي



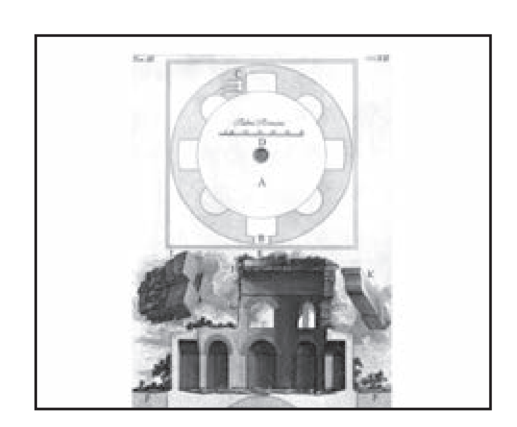
(شكل ٩٠) بازيليكا القديس لورنس في روما (نحو سنة ٣٢٦-٣٣٠ م)، أعلى: كنيسة القديس لورنس المضافة في فترة متأخرة، مسقط أفقي



(شكل ٩١) بازيليكا القديس لورنس في روما (نحو سنة ٣٢٦-٣٣٠ م)، منظور تصوري



(شكل ٩٢) بازيليكا القديسة أغنيس في روما (نحو سنة ٣٣٨-٣٥٣ م)،
ملحق بها ضريح كوستانزا، كنيسة أغنيس (ق٧ م) أعلى اللوحة يمينًا، مسقط أفقي



(شكل ٩٣) ضريح هيلينا الملحق ببازيليكا القديسين
مارسيلينوس وبطرس الجنائزية، مسقط أفقي



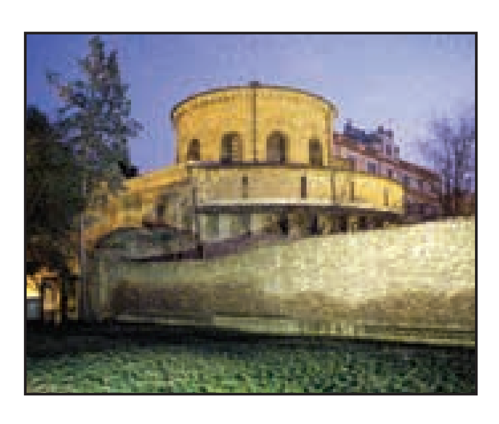
(شكل ٩٤) منظر عام من الخارج



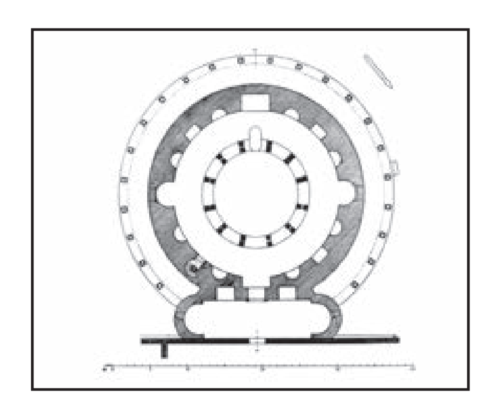
(شكل ٩٥) تابوت من الرخام السماقي الخاص ضريح هيلينا، والمحفوظ
حاليًا بمتحف الفاتيكان



(شكل ٩٦) تفصيل للمناظر التصويرية على التابوت



(شكل ٩٧) ضريح القديسة كوستانزا الملحق ببازيليكا القديسة أغنيس Agnes(نحو ٣٣٨-٣٥٣ م)، منظر عام من الخارج



(شكل ٩٨) ضريح القديسة كوستانزا، تصور لتخطيط الضريح (نحو سنة ٣٣٨ -٣٥٣ م)



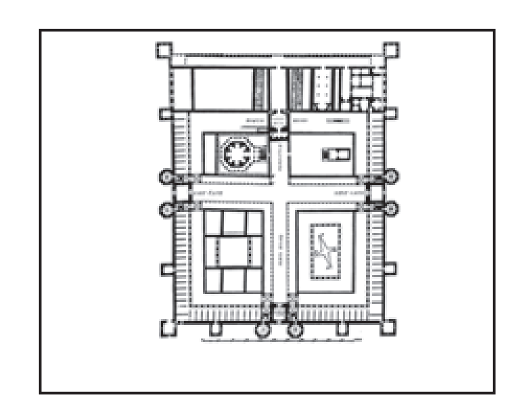
(شكل ٩٩) ضريح القديسة كوستانزا، منظر عام من الداخل



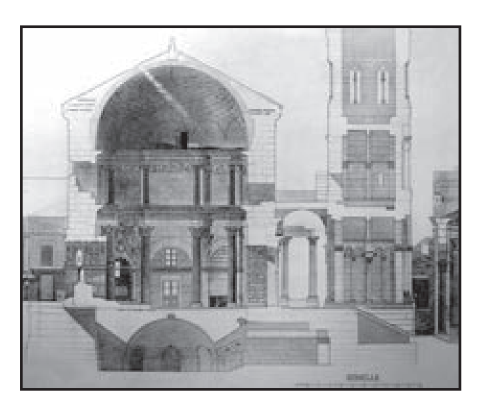
(شكل ١٠٠) ضريح القديسة كوستانزا، البلاطة الدائرية Ambulatory، مغطاة قبو أسطواني مزين بالفسيفساء (يسار أعلى)



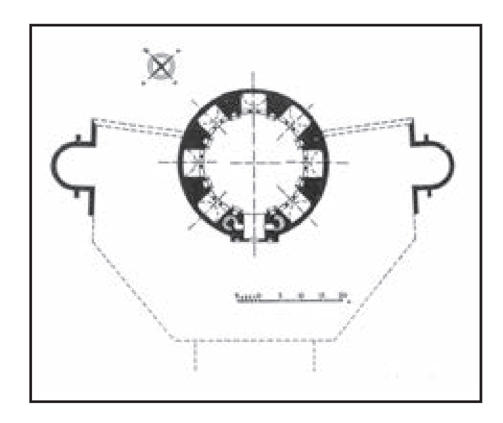
(شكل ١٠١) ضريح القديسة كوستانزا، تابوت كوستانزا الرخامي محفوظ بكنيسة القديس بطرس بالفاتيكان



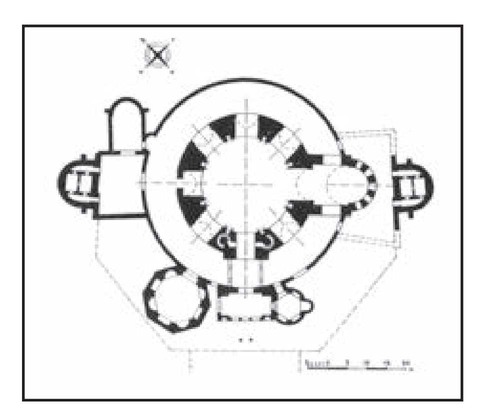
(شكل ١٠٢) قصر دقلديانوس بدالماتيا، ملحق به ضريح مثمن مركزي التخطيط، مسقط أفقي



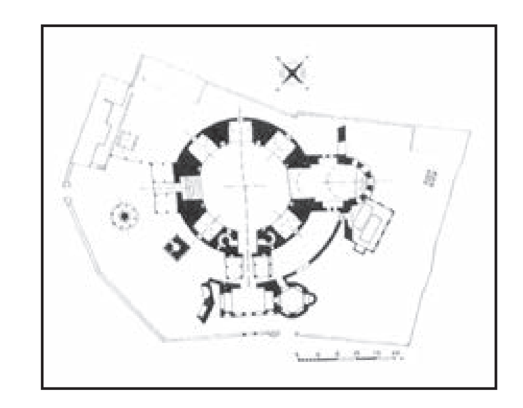
(شكل ١٠٣) ضريح دقلديانوس الملحق بقصره بدالماتيا، قطاع رأسي من الداخل



(شكل ١٠٤) روتندا القديس جورج بثيسالونيكي (أوائل القرن ٤ م)، مسقط أفقي



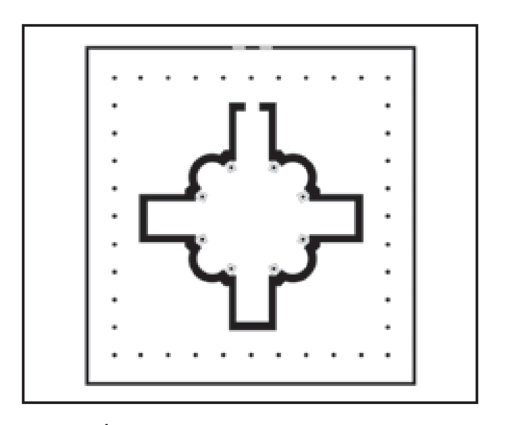
(شكل ١٠٥) روتندا القديس جورج بثيسالونيكي (منتصف القرن ٥ م)، مسقط أفقي



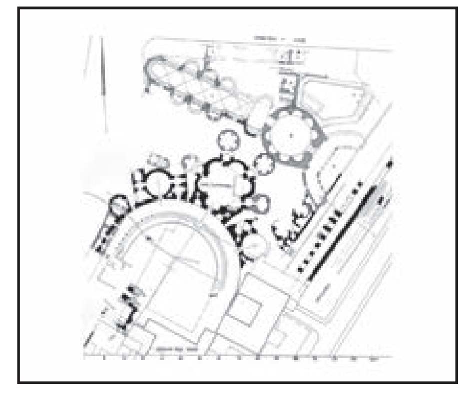
(شكل ١٠٦) روتندا القديس جورج بثيسالونيكي (حاليًا)،
مسقط أفقي



(شكل ١٠٧) روتندا القديس جورج بثيسالونيكي (حاليًا)،
منظر عام من الخارج



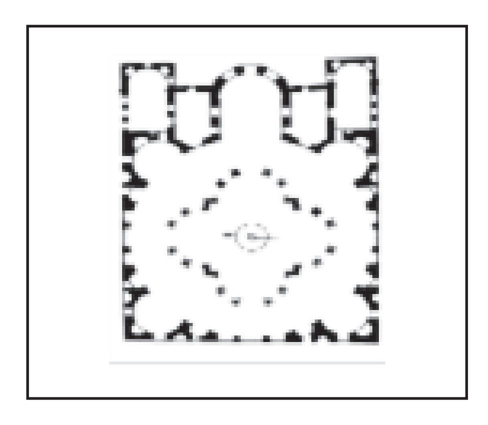
(شكل ١٠٨) ضريح نيسا سنة (٣٧٠ م)، مسقط أفقي



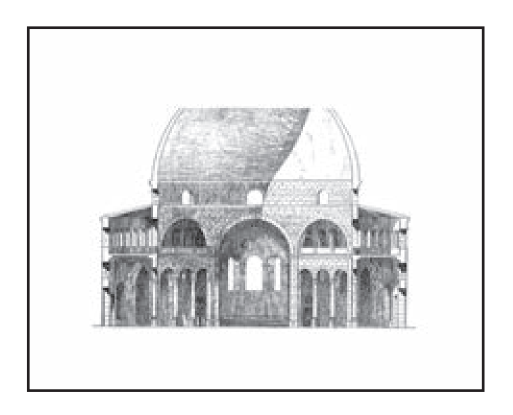
(شكل ١٠٩) قصر أنطيوخوس في القسطنطينية (بداية القرن ٥ م)،
وبه قاعة مركزية سداسية الشكل ذات حنايا، مسقط أفقي



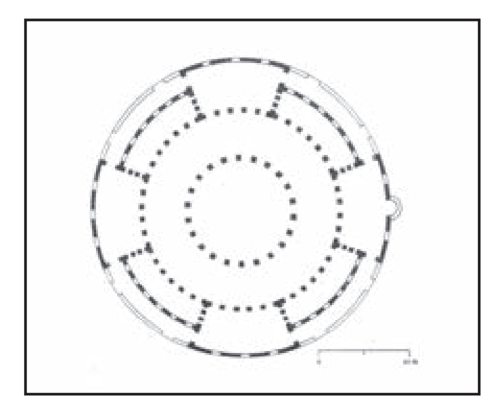
(شكل ١١٠) كاتدرائية بصرى سنة (٥١٢ م)
صورة توضح حالتها كما كانت في القرن ١٩ م



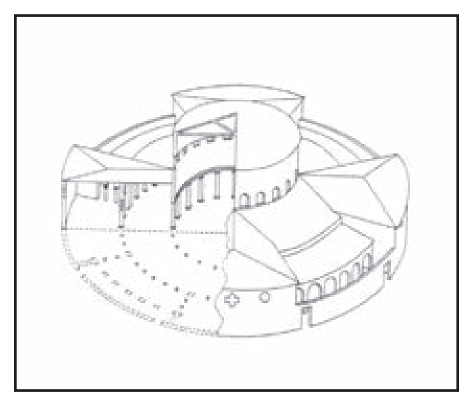
(شكل ١١١) كاتدرائية بصرى، مسقط أفقي



(شكل ١١٢) كاتدرائية بصرى، قطاع رأسي



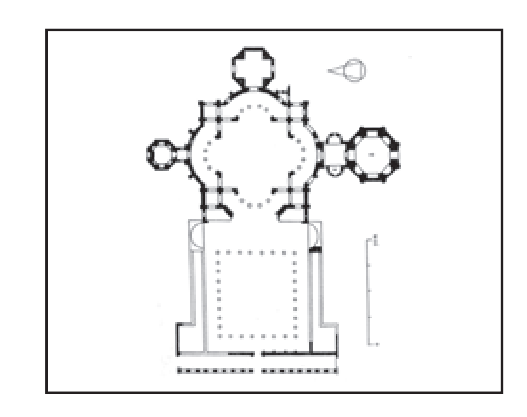
(شكل ١١٣) روتندا القديس ستيفانو بروما سنة (٤٦٧–٤٨٨ م)
مسقط أفقي



(شكل ١١٤) مخطط منظوري

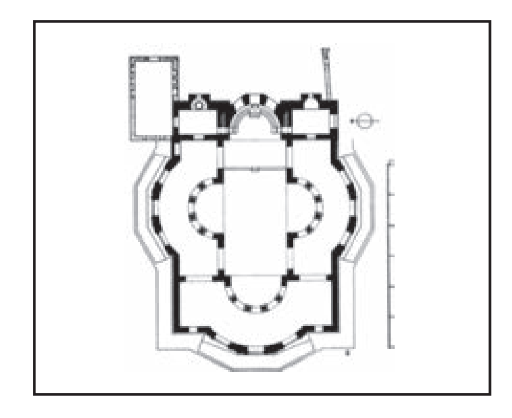


(شكل ١١٥) روتندا القديس ستيفانو بروما، من الداخل

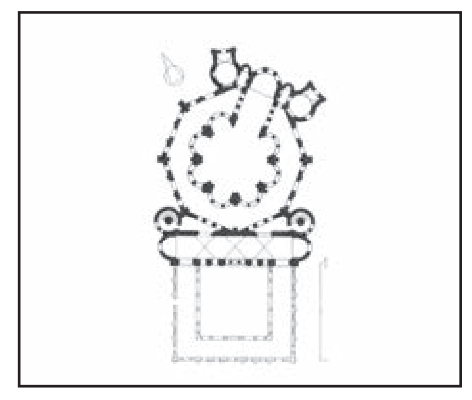


(شكل ١١٦) كنيسة القديس لورنزو بميلانو (أوائل القرن ٥ م)، مسقط أفقي

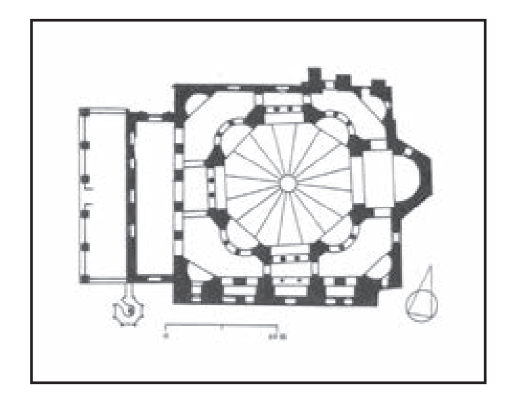
(شكل ١١٧) كنيسة القديس لورنزو بميلانو، من الداخل



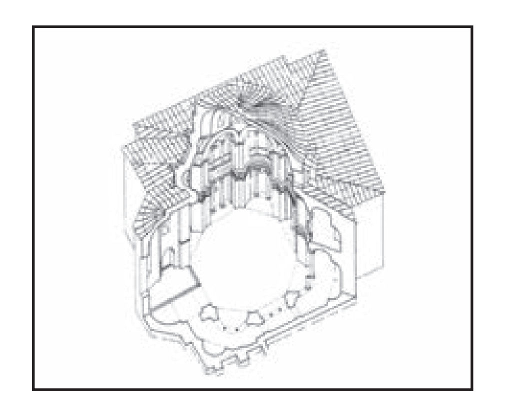
(شكل ١١٨) كنيسة الرصافة (ق٦ م)، تخطيط مركزي رباعي الحنايا، مسقط أفقي

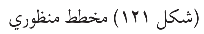


(شكل ١١٩) كنيسة القديس فيتالي سنة (٥٢١-٥٣٢ م) في رافينا، مسقط أفقي

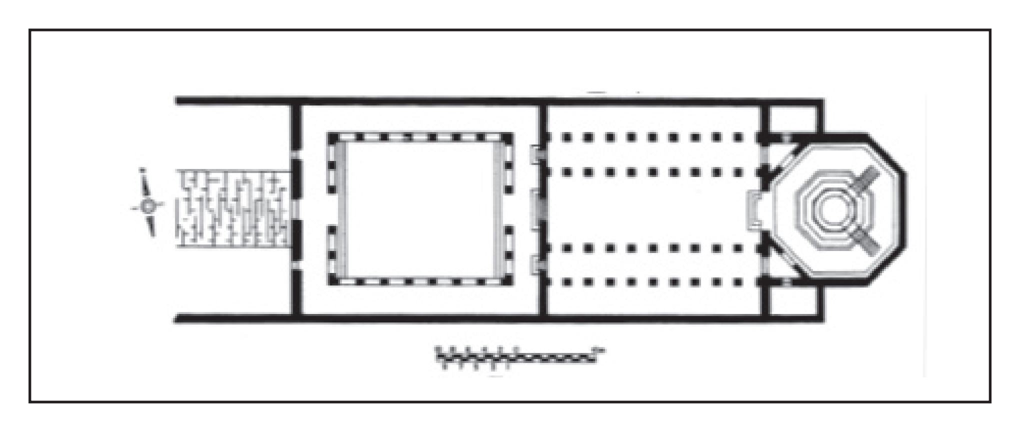


(شكل ١٢٠) كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس
سنة (٥٢٧-٥٣٦ م) في القسطنطينية، مسقط أفقي

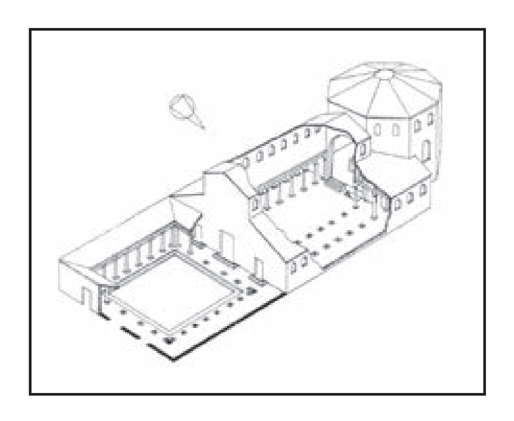




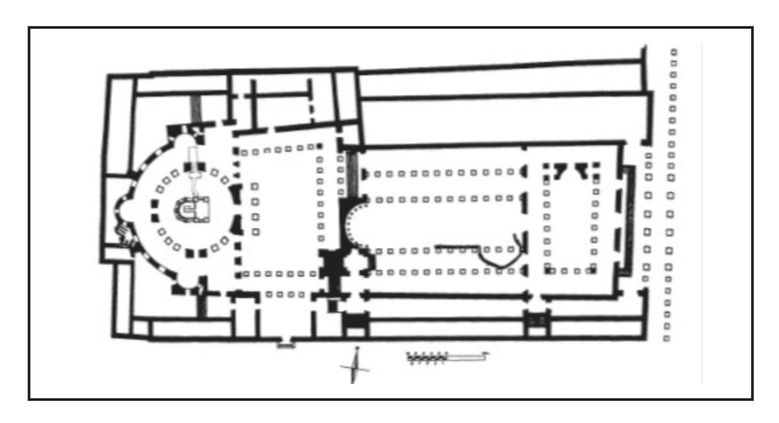
(شكل ١٢١) مخطط منظوري



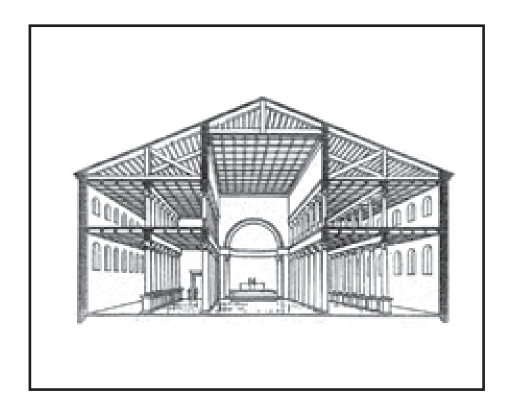
(شكل١٢٢) كنيسة المهد في بيت لحم (نحو سنة ٣٣٣ م)، مسقط أفقي



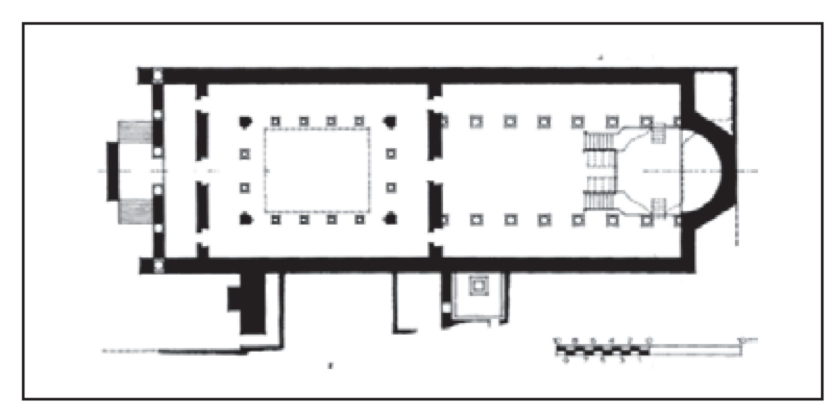
(شكل ١٢٣) مخطط منظوري تصوري



(شكل١٢٤) كنيسة القيامة في القدس (نحو سنة ٣٣٥ م)، مسقط أفقي



(شكل ١٢٥) منظور تصوري للبازيليكا



(شكل١٢٦) كنيسة إليونا بجبل الزيتون بالقدس الشريف (نحو سنة ٣٣٣ م)، مسقط أفقي